علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

٦



أحمد أمين

مؤرخ الفكر الإسلامي

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية

دار القلم

دمشق

علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم



مؤرخ الفكر الإسلامي

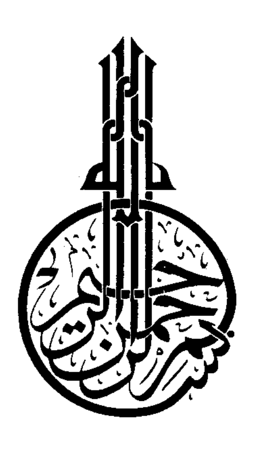
١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ

١٨٧٨ - ١٩٥٤م

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقــدّمة

لم أضع هذا الكتاب وفق ترتيبٍ انبثق من نفسي، ولكنَّ دار القلم قد وضعت خطّةً واضحةً للتأليف في سلسلة (علماء ومفكرون معاصرون) وكان عليَّ أن ألتزمها قدر الإمكان.

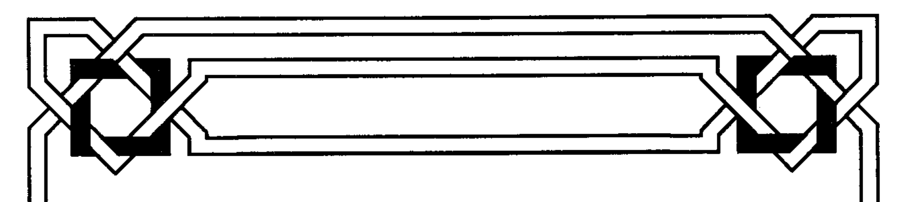
ومن ملامح هذه الخطة أن نهتمَّ بفكر المترجم عنه ومؤلفاته أكثر من الاهتمام بسرد حياته، وذلك ملمحٌ جيد، لأنَّ أكثر المترجمين يسهبون في أدوارٍ خاصّة بحياة المترجم له، دون أن يضيفوا الجديدَ، فإذا جاؤوا لفكرِه الأصيل، وأثره الحفيل أوْجزوا الحديث، وهذا لا يُغني القارئَ المتعطش لثمار المترجَم له كي تؤتي أُكلَها في نفسه، ومن هنا كانت خِطّةُ دار القلم جديرةً بالاعتبار، ولست أغفل عن أثر التحليل النفسي في دراسة الشخصية، ولكنَّ إيضاحَ هذا الأثر له مكانٌ غيرُ هذا المكان، إذ الفائدة العلمية مقدَّمةٌ على غيرها، وفيها حثٌّ للقارئ كي يردَ الموردَ الأول لهذه الآثار، ومعه الكشّاف الهادي، والقائد البصير.

وقد أكون تجاوزت بعض الشيء في عدد الصفحات المقررة في الخطّة، وعذري أنَّ أحمد أمين كان باحثاً موسوعياً كبيراً، ولا بدّ من استيعاب آثاره الجياد...

وعسى أن أكون قد بلغتُ بعض ما أُريد

الدكتور محمّد رجب البيّومي





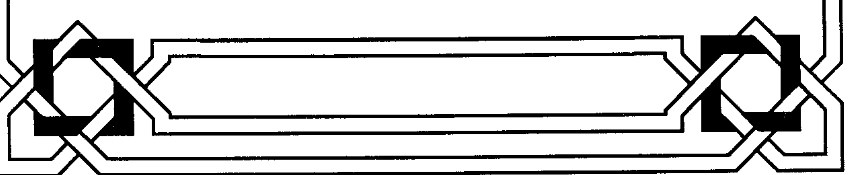
الفصل الأوّل

لمحاتٌ مِنْ حياتِهِ وفِكْرِهِ

١ ـ مسيرة حياته موجزة

٢ ـ ملامح شخصيته

٣ ـ آراؤه ومحاوراته العلمية مع معاصريه





الفصل الأوّل

لمحاتٌ من حياتِهِ وفِكْرِه

١ ـ مسيرة حياته موجزة:

ولد (أحمد أمين) في القاهرة في أول أكتوبر سنة ١٨٨٦م =١٣٠٤هـ، ونشأ في كنف والدٍ أزهريٍّ، يحسُّ إحساساً قوياً بواجبه نحو أولاده، كما يرى هذا الواجبَ بمنطقه الذي أذعنَ له، وعدَّه السبيلَ المهيئ للنجاح.

فقد دفع به إلى حفظ كتاب الله في كُتَّابٍ أُلحق بمسجدٍ إلى جوار منزله، كلُّ أثاثه حصيرٌ بالٍ، قد انسلت بعضُ عيدانه، ووُضعت فيه آنية من الفخار، ذات ماءٍ، يشربُ منه المريض والسليم بوساطة كوز معلَّق به.

وشيخُ الكتّاب ذو عصا غليظة، يؤدِّب بها الصغار[1]، فإذا جاء وقت الغذاء اشترك التلاميذ جميعاً في الطعام، بعد أن يدفع كلُّ طاعمٍ ثمن ما يأكل، وكان التلميذ الصغير يخضعُ لعقوباتٍ قاسية إذا أهمل الحفظ، ووالده من ورائه يختبره كلَّ يوم فيما حفظ.

ثم دفعه إلى مدرسةٍ ابتدائية بعد أن حفظ القرآن، فألمَّ فيها بمبادئ العلوم الأولى، وقد ارتاح إليها، إذ وجد بها من النظام والاهتمام ما افتقده

---

(١) ارجع في هذا التلخيص إلى ما كتبتُه في كتابي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين): ١/ ١٢٤ وما بعدها عن أحمد أمين.

في الكتّاب، وظنَّ أنَّ سبيله التعليمي قد تحدَّد، ولكنَّ والده رأى باستشارة بعض زملائه أن يتركَ ولدُه المدرسةَ إلى الأزهر، ويصحبُه إليه ذات صباح، ليرى المسجد غير المدرسة، ذا إيوانٍ متسع، قد فرش كلُّه بالحصير، وامتدت أعمدته صفوفاً، وكلُّ عمودٍ وُضع بجانبه كرسيٌّ عالٍ يشدُّ إلى العمود بسلسلة، ويجلس عليه شيخٌ معمَّم، بيده ملازمُ صفراء من كتاب، والطلاب متحلِّقون حوله، وكثيراً ما يقرؤون دون أن يحاول تذليل صعوبةٍ علمية لأذهانٍ غضّة، لم تتعود الاستماعَ دون نقاش.

ولكنَّ الذي ساعد الطالب أنَّ والده كان من خلفه، يسأله كلَّ يومٍ عن موضوع الدرس، ويشرح له ما غمض، ويحاول أن يجعل علومَ الأزهر قريبةً من مستواه، ولذلك كان الطالبُ أفضل من كثيرٍ من زملائه، ولكنه كان متشوقاً لترك الأزهر، فاهتبل فرصةَ إعلانٍ للتدريس بمدرسة راتب باشا بالإسكندرية، وتقدَّم ليُمتحن، ففاز وعُيِّن.

ثم قُدِّر لمدرسة القضاء الشرعي أن تُنشأ، وأن تأخذ طلّابها من نابغي أبناء الأزهر، بعد امتحانٍ عسير، فطَمَحَتْ بالشاب همَّتُه إلى الالتحاق بها، وخرج من الامتحان ظافراً، فصار أحدَ الطلاب، وحديثُ مدرسة القضاء يطول، حيث كانت ذاتَ ثقافةٍ متعددة من دينية ولغوية وأدبية، وقانونية عصرية.

وقد اختير لها ناظرٌ كفءٌ هو (عاطف بركات)، فأشرف إشرافاً دقيقاً عليها، يرعى الدروس، ويضع المناهج، ويناقش الأساتذةَ والطلاب، وكانت العلومُ المتشعبة كثيرةً، ولا تحصل إلا بالصبر الدؤوب، والوقتُ كلُّه عمل، حتى الليل، لأنَّ الطالبَ لا بدَّ أن يستعدَّ لدروس الغد، يقرؤها في الكتاب المقرر قبل أن يبدأ الأستاذُ شرحها في الغد.

وظهر لأحمد أمين نبوغٌ مشهود، إذ تقدَّم للمحاضرة العامة أمام زملائه وأساتذته، وهي ضربٌ من الاستعداد العلمي أتاحَه ناظرُ المدرسة لنجباء الطلاب وكان عاطف بركات هو الذي يقرأ ما سيُقال، ويُبدي رأيَه فيه، وقد طالعَ ما كتب أحمد أمين ففاز بتقديره، وتعمَّقت صلته به.

ثم مرَّت الأيام، فانتهت أيام الدراسة، ليصبحَ الطالبُ الناجحُ بأعلى تقدير مدرِّساً بالمدرسة، وتزداد صلتُه بعاطف بركات، فيتيح له أن يقرأ كُتباً مترجمة في الأخلاق والتربية وعلم النفس، وأن يلخصها في محاضراتٍ تلقى على الطلاب.

وهنا تتفتَّح نفسُه لمعارفَ جديدة، ويصمم على أن يتعلم الإنكليزية، ليقرأ الكتاب المترجم في أصله، حتى إذا بلغ من ذلك ما أراد، بدأ بترجمة كتابٍ في الفلسفة طُبع عدة مرات، وكان باكورةً طيبة لكُتبٍ تؤلَّف في موضوعه.

لقد أخلص الأستاذ لعلمه، فدأب في تحصيله حتى وصل به إلى أرقى ما ينتظر من مثله، ولو أنَّه منحَ العلمَ وحدَه دون الرفقة الصالحة ما استطاعَ أن يأخذ وضعَه الخلقيَّ والاجتماعيَّ بين الناس، وإن استطاع أن يكون عالماً ذا بحوث، فبيئةُ أحمد أمين قد هدته إلى اختيار النماذج الصالحة لاقتدائها، كما بَعُدتْ به فطرتُه الطيبة عن النماذج السيئة، فلم تتصل أسبابه بها، هذه البيئةُ العلمية، دفعتْهُ إلى صداقاتٍ شتّى، من أهمها زملاؤه في (لجنة التأليف والترجمة والنشر)، حيث كانوا ذوي مواهب مختلفة، واهتماماتٍ أدبية وسياسية واجتماعية ذات طموح.

وقد تحدَّث الأستاذ عنهم حديثَ المغتبط السعيد، فقال: إنَّ ظروفَه السعيدة دفعتْهُ سنة ١٩١٤ إلى التعرُّف بشبّانٍ ممتازين، يتثقفون بغير ثقافته

التي هضمَها، فمنهم من بلغَ درجةً جيدةً في الجغرافية، والتاريخ العام، والأدب الإنكليزي، ومنهم من بلغ هذه الدرجة في الرياضيات، والطبيعة والكيمياء، وكلُّهم يعرف من الدنيا الجديدة والمدنية الحديثة أكثر مما يعرف.

وقد كانوا يجتمعون وإياه في بعض المقاهي بادئَ ذي بدء، فتكون من أحاديثهم مادةً شهيةً مختلفة الطعوم، متعددة الألوان، فعاشقُ الأدب الإنكليزي ذو ذوقٍ وتحصيل، فهو يتحدَّث عما يستوعبه، وقارئ التاريخ يجيد ذكرَ طرائفه، وما حصَّله من بعض أصوله، ويقارن بين أسلوب المؤرخين العرب والفرنجة، وعالمُ الرياضيات، وصاحب الطبيعة والكيمياء، كلُّهم يتذوقون الأدب، ويقرؤون كتبه في التراث العربي والكُتب الأوروبية عن فهمٍ واعٍ.

يقول الأستاذ: «وكلُّ أولئك كانوا مدرسةً لطيفةً مفيدة لي، مدرسةً خلتْ من عبوس الجد، وثقل الدرس، وسماجة تحديد الموضوع والزمان والمكان، مدرسةً فيها الجدّ والفكاهة، والعلم والأدب، والشعر والتقريظ والنقد، مدرسةً يكون فيها التلميذُ أستاذاً، والأستاذُ تلميذاً، مدرسةً فيها حريةُ القول، وحرية الاستماع، وحرية الموضوع، وحرية كل شيء، تقاربَ فيها سنُّ التلاميذ والأساتذة، فتجانسَتْ مشاعرُهم، وتشابهت آمالهم ومطامحهم، وتفتَّحت نفوسهم للاستفادة من تنوُّع مواهبهم.

وبهذه المدرسة أحسستُ أني أقربُ إلى عقلية أصحابها ومزاجهم وثقافتهم شيئاً فشيئاً، وأبتعدُ عن عقلية زملائي الأقدمين شيئاً فشيئاً، ورأيتني بفضل ما شوَّقوني إليه من كُتب، أكوِّن لنفسي نواةَ الكتب الإنكليزية بجانب الكتب العربية، وأحضِّر منها دروساً في الأخلاق والمنطق، وأملأ

الفراغَ بالمطالعة في هذه وتلك، وإذا العينُ تتفتح، وإذا الأفقُ يتسع»[1].

تعمَّدتُ اختيار هذه السطور لأتحدث عن أثرين هامين شَغَلا فراغَ (أحمد أمين) بأحسنِ ما يشغل به الفراغ، وقد نتجا من تعاون هذه الصحبة الممتازة حقاً.

أما الأثرُ الأول (**فإنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر**)، وهو أثرٌ أورثَ الثقافةَ العربية خصوبةً وازدهاراً، حيث قامت هذه اللجنة بنشر ما لم تستطعْهُ هيئاتٌ حكومية بين يديها المال الكثير، وطرق التوزيع المتعددة، لقد قدَّمت (لجنةُ التأليف والترجمة والنشر) للقارئ العربي ذخائرَ الفكر الأوروبي في كلِّ فرعٍ من فروع المعرفة تقديماً أميناً، يبتعد عن الاتجار وكسب السوق المنتهز، كما قدمت ذخائرَ التراث العربي مشروحةً مضبوطةً كأحسن ما يستطيعُ أن يقومَ به محققٌ ضليع، لأنَّ الذين أشرفوا على تحقيق التراث في هذه اللجنة هم من كبار الأكْفاء ذوي الدراية والأمانة معاً، ثم اتجهتْ إلى التأليف الخاص فرفدت المكتبة العربية بأنفس ما وعته من قرائح أحمد أمين، وطه حسين، وفريد أبي جديد، والغمراوي، والزيات، وأحمد زكي، والعبادي، وزكي نجيب محمود، ومحمد بدران، وعبد الوهاب عزام، والكرداني، ومن لا أستطيع حصره من الفُضلاء.

وكانت الثقة في مطبوعات اللجنة كبيرةً جداً، فهي أكبرُ تقريظٍ للكتاب، والقارئ حين يُقْبِلُ عليه يعرف سلفاً أنه أمام مادةٍ دسمة، وتحقيقٍ علمي، وبحثٍ راق، وليس أمام ناشرٍ ينتهز الفرصة للكسب من أيِّ اتجاه، لذلك رُزقَتْ مؤلفات اللجنة حظاً وافراً من الذيوع، وتخطَّفتها الأيدي،

---

(١) ما ذُكر على لسان أحمد أمين في هذا الفصل ملخَّصٌ من كتاب (حياتي) في مواضعَ شتى.

وقد يُطبَع كتابٌ تراثيٌّ أو مترجم في غير مطبوعات اللجنة، وتقوم هي بطبعه محقَّقاً مضبوطاً، فإذا كتابُ اللجنة هو المرجعُ المختار، وإذا الذين اشتروا سواه يضطرون إلى شراء كتابها في ثقةٍ واطمئنان.

هذا أثرٌ أول، أما الأثر الثاني فهو صدور (مجلة الثقافة) أربعة عشر عاماً متوالية، بعد صدور (مجلة الرسالة) ستّ سنوات حافلة بآثار أعضاء اللجنة، لأنَّ الأستاذ أحمد أمين قد عاون الرسالةَ معاونةً كبرى مع المرموقين من أعضاء اللجنة منذ إنشائها، ثم رأى المجلة تكسب كثيراً، ولا تُعطي الكُتّابَ شيئاً ذا بال، وهذا موضوعٌ فصَّلْتُه بالأدلة على صفحات (مجلة الهلال) من قبل، فلا أعود إلى هذا التفصيل الآن، ولكنّي أذكر أنَّ ازدهار (الرسالة) في سنواتها الأولى كان أكثرُه بجهود (لجنة التأليف والترجمة والنشر)، وحين رأت اللجنة بعد ست سنوات أنها تستطيع أن تُنشئ مجلةً تُغني غَناءَ (الرسالة) في كلِّ شيءٍ بادرتْ بإنشاء (الثقافة).

والحقُّ أنَّ المجلتين الممتازتين حقاً، كانتا المنارَ الأول للثقافة العربية الأمية، وبلغتا من الثقة والاطمئنان وسَعة الانتشار بين طوائف المثقفين مبلغاً لا تصل إليه مجلةٌ الآن، مع تهيئ الوسائل للنشر الممتاز طبعاً وتوزيعاً وإغراءً، فإذا قلنا: إنَّ الأستاذ أحمد أمين كان الباعثَ الأول لهذا النشاط الأدبي الثقافي فلا نبعد.

وقد تنقَّل الأستاذُ من التدريس بمدرسة القضاء إلى القضاء ذاته، فكان قاضياً في محاكم شتى بعواصم مصر، غير أنه كان لا يجدُ نفسه في هذه المهمة الشاقة، وقد بسط بعض ما كان يعانيه نفسياً حين يقف على آلام الأُسَر المصرية، ومشكلاتها الاجتماعية، ولا يستطيع أن يقومَ بعملٍ جادٍّ لإنقاذ هذه الأسر المفككة لأمورٍ ترجِعُ إلى البيئة أكثر مما ترجع.

ثم كانت خطوتُه الكبيرة حين اختاره الدكتور طه حسين للتدريس بكلية الآداب، فكان ذلك فتحاً مبيناً في نتاجه العلمي الثمين، حيث تخصَّص في تاريخ الحركة العقلية للأمة الإسلامية، فأخرجَ (فجر الإسلام) و(ضُحى الإسلام) و(ظُهر الإسلام) على نمطٍ من التحليل العلمي لم يُعرف من قبلُ في الدراسات العربية، كما امتدَّ نشاطُه الاجتماعي والعلمي إلى نواحٍ شتى، فهو عضوٌ في مجالس الكليات والجامعات، وعضو في مؤتمرات المستشرقين، ورحالةٌ إلى شتى العواصم الإسلامية، باحثاً عن ذخائر المخطوطات.

وحين تطوَّر به الزمن، فانتُخبَ عميداً لكلية الآداب، بذلَ الجهدَ في تقدُّم الكلية فكرياً واجتماعياً، فكان يراقِبُ الإدارات المختلفة بالكلية، ويرعى الأنشطة الاجتماعية الخاصة بالشباب.

وهو كقاضٍ سابق حرصَ على أن يراجِعَ كلَّ ورقةٍ تُقدَّم إليه للتوقيع، وأن يُحضرَ الموظَّف الخاص بها، ليناقشه في كل ما تتضمن من أمور.

وكانت لديه حاسةٌ مرهفة في مسألة الترقيات بين أعضاء هيئة التدريس، إذ يعكف على قراءة الحيثيات قراءةً دقيقة، ليوازن بين زميلٍ وزميل، ويكوِّن رأيه المنطقي الحاسم في الترجيح بمجلس الكلية، وبهذه الحساسية الأمينة تصدَّع ما بينه وبين الدكتور طه حسين من وشائج المودة، إذ كانت للدكتور تزكياتٌ خاصة لبعض المرشحين لا يراها العميد صائبةَ التقدير، إذ يجدُ الحيفَ ظاهراً في تقديم شخصٍ لا يستحِقُّ على مَنْ هو الأحقّ[1]، وتكرَّر الخلافُ أكثر من مرة، فاتسعت شقة النفور من الدكتور

---

(١) كما حدث للدكتور نجيب محمد البهبيتي رحمه الله تعالى. (الناشر)

طه حسين، على حين تألَّم الدكتور أحمد أمين لهذا الصدع غير المنتظر، ثم استقال الأستاذ من العمادة حين وجدَ وزير المعارف يصدر قراراتٍ تتعلق بهيئة التدريس دون الرجوع إلى مجلس الكلية، وقال كلمته المشهورة: «أنا أكبر من عميد، وأقلُّ من أستاذ».

وقد عُدَّ الأستاذ أحمد أمين فترة العمادة فترةَ إجدابٍ فكري، وقحطٍ تأليفي، لأنها صرفته عن بحوثه المنتظرة في تاريخ الحركة العقلية حيناً من الدهر، وحين حاول اتصال ما انقطع وجد في بادئ الأمر صعوبةً شاقّة ذلَّلها بالعمل الدؤوب!.

وبعد رجوع أحمد أمين أستاذاً بالكلية، انتدبه وزيرُ المعارف مديراً للإدارة الثقافية بالوزارة، وهي إدارةٌ تعمل دون خطةٍ مرسومة واضحة، فاختصاصُها لا يمنعُ الكسولَ من الكسل، ولا العاملَ من الجدّ.

وفي إدارته هذه جاءته فكرة (الجامعة الشعبية) حيث رأى أنَّ للشعب حقّه في التعليم، وليس بضروريٍّ أن يكون للدراسة سُلَّمٌ يبتدئ بالمدرسة الابتدائية، مروراً بالثانوية، حتى تصل بالطالب إلى الجامعة، فما المانع من أن تكون الجامعة الشعبية ميداناً لكلِّ من يحبُّ الارتواءَ العلميَّ، مؤهّلاً أو غير مؤهل، دون تقييدٍ بسنٍّ ولا امتحان، على أن تكون المحاضرات شاملةً لما يهمّ المجتمع العربي سياسياً واقتصادياً وأدبياً، وهو مشروعٌ جيد، واصلَ الأستاذ بحثه مع مرؤوسيه في الإدارة الثقافية حتى أخرجَه إلى حيز الوجود.

وقد تطوَّر فيما بعد إلى ما سُمِّيَ بقصور الثقافة.

والحقُّ أنَّ هذا التطوير لم يؤدِّ ثمرته المنشودة التي قدَّرها الأستاذ أحمد أمين.

ويقول الأستاذ بعد حديثه عن هذه الجامعة: «وعُنيت وأنا في الإدارة الثقافية هذه بتشجيع ترجمة أمهات الكتب الغربية إلى اللغة العربية، فكان هذا العمل نواةً توسَّعت فيه الوزارة فيما بعد، ولكنّي لم أعتزّ بشيءٍ اعتزازي بابنتي العزيزة (الجامعة الشعبية)، ولذلك لما تخلَّيتُ عن الإدارة الثقافية بعد سنةٍ تقريباً، كان لي شرفُ الاحتفاظ برئاسة مجلس إدارتها إلى اليوم»[1].

وإذا كان نشاطُ أحمد أمين أعظم من أن يُحصَرَ في نطاق، فقد رأى المسؤولون أن يُعيَّن مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية، فعمل على إنشاء معهدٍ للمخطوطات، لا يزالُ ينْمو ويترعرع حتى أصبح اليوم ذا مكانةٍ متصدّرة، فأرسل البعثات لتصوير المخطوطات من شتّى المكتبات العالمية، ثم عَقَدَ مؤتمراً ثقافياً يبحث في مناهج اللغة العربية والجغرافية والتاريخ والتربية الوطنية في الأقطار العربية، والقدْر المشترك الذي يجب أن يوحِّد بينها، والقدر الذي يجب أن تستقل به كلُّ دولة.

وقد أصيبَ الأستاذ بمرضٍ في عينه أولاً، ثم بعلّةٍ في ساقه سبَّبت قعودَه في المنزل إلا لضرورةٍ قصوى، وكان أثناء ذلك لا ينقطع عن البحث مُملياً ومستعيناً بغيره قارئاً وكاتباً، حتى انتقلَ إلى رحمة الله في (٣٠) مايو سنة ١٩٥٤، فبكاه الآلاف من عارفي فضله ومقدّريه.

٢ ـ ملامح شخصيته:

من دلائل الفضل الجمّ لدى الأستاذ أحمد أمين أنّه مكث أربعين عاماً يتجدَّدُ انتخابُه سنوياً لرئاسة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) في

---

(١) حياتي، ص٣٠٠.

مصر، وهي مجموعةٌ من الأعلام الفضلاء في العلم والأدب والتربية وذوي التوجيه القياديّ في دنيا الفكر، وكلُّهم مُجمعون على تقديمه ورئاسته، وكلُّهم أصدقاؤُه الذين يُباهون به، ويعدّون رضاه موضع الارتياح والثقة، وما اجتمع هؤلاء الأعلام على اختيار (أحمد أمين) لرئاسة لجنتهم الموقّرة إلا لما لمسوه، لا مِنْ كفايةٍ إدارية وعلمية فحسبْ، بل من كفايةٍ خُلقية تهدف إلى المثل الصالح، وتعتصم بالعدالة الدقيقة، حتى عُرِف فيما بينهم بالعدل لكثرة ما كرَّر هذه الكلمة، ملتزماً حدودها الفاصلة، وقد أورثَتْه هذه الصفة شيئاً من المهابة لدى القوم، وليست مهابةَ الرئيس المتعالي، بل مهابة الرئيس الطيّب، الذي وصفه العربي القديم بقوله في أخيه:

إذا ماتراءاهُ الرجالُ تهيَّبوا — فلم ينطقوا العوراءَ وهو قريبُ

وليس هذا الكلام من قبيل المبالغة، لأنّي أتحدث عن واقعٍ ملموس، واقعِ كوكبةٍ من الفضلاء ذوي العلم والرأي والنباهة، يُجمعون على تقديم أحدهم في مدى أربعين عاماً، وكأنَّه إمامُ مذهبٍ هم تابعوه، ولن يكون ذلك إلا لاستحواذه على عناصرَ أصيلة من عناصر الكمال الإنساني.

ولأضرب المثلَ لبعض ما أعنيه، فإنني أستشهدُ بقول أستاذٍ كبير من رجال الفكر والقانون في العالم العربي يرثي صديقه أحمد أمين، فقال عنه مصوّراً الواقع دون افتعالٍ، قال الدكتور عبد الرزاق السنهوري(١):

«لقد عجبتُ من أنَّ صديقي أحمد أمين كان قد أقصيَ عن مدرسة القضاء الشرعي من أجل مبدئه، ومن أجل وفائه لأستاذه عاطف بركات، وكنتُ أعلم إلى جانب ذلك أنه كان معروفاً بحبِّه للوفد، أثيراً عند زعيمه

---

(١) أحمد أمين بقلم أصدقائه ببعض الاختصار، ص٧٠.

سعد زغلول، وأنه أدّى كثيراً من الخدمات إلى الوفد وزعيمه، بل إنَّ الزعيمَ كان يستنير برأيه عن الحالة في مصر، مما يجعلُ أحمد أمين في مقدّمة الطبقة المثقفة الوفدية المخلصة لمبدئها، وهذه الأعوام الخمسة التي مرَّت قد سجَّلت أحداثاً جساماً، فهذا الأستاذ عاطف بركات قد رجَع، ولكن لا إلى مدرسة القضاء الشرعي، بل إلى وكالة المعارف، وهي وظيفةٌ أجلُّ شأناً وأكبر خطراً من وظيفة ناظر مدرسة القضاء الشرعي، وهذا الوفد قد وُلّي الحكمَ مرتين فراحت وجوهٌ قديمة، وجاءت وجوهٌ كثيرة، وولّي الوظائف كبيرها وصغيرها، مَن عُرف بالوفدية من كبار الموظفين ومن غيرهم..

أمّا صديقي أحمد أمين فقد وجدْتُه مغموراً في ركنٍ مهجور من وظائف القضاء الشرعي، حيث كان منذ خمسة أعوام، لقد رجع أستاذُه وصديقه الحميم عاطف بركات إلى مناصب الحكومة الكبرى، وكان يستطيع أن يعوِّضَ الرجلَ بعض ما عانى في سبيل وفائه له، وفي سبيل الجهاد عن المبدأ والكرامة، ولكنه لم يفعل شيئاً!.

ووَلِيَ الوفدُ الحكمَ مرتين، وفي كلِّ مرةٍ كان يستطيع أن يجزيَ أحمد أمين خيرَ الجزاء، إن لم يكن من أجل إخلاصه لوطنه، فمن أجل وفديّته الخالصة من الدغل، ولكنَّ الوفد لم يفعل شيئاً! هذا عجبي الأول.

أما العجب الثاني فمِن صديقي أحمد أمين نفسه، قابلني بعد عودتي متهلِّلاً باشّاً، يحدّثني عمّا تعاقب على مصر من أحداثٍ أثناء غيبتي، وعما خطَت مصر في جهادها المقدس من مراحل، وهو مبتهجٌ راضٍ بما تمّ، ثم آملٌ للمزيد في المستقبل، وكأنه يروي تاريخاً مجرَّداً ليس له شأنٌ فيه، ولا لشخصه دخلٌ في حوادثه، لم يذكر لي إلاّ لماماً ـ وهو يستطرد ـ

ما جاهد وما قاسى في سبيل إخلاصه لوطنه، ولا يتحدَّثُ عن ذلك إلا إذا اضطُرَّ إليه اضطراراً، لصلةٍ ضرورية تصل بين حادثين، أو تعلِّل أمراً لا بدَّ من تعليله، فتفرَّستُ في أعماق نفسه، فوجدتُه مطمئناً هادئاً، لا يتكلَّف ولا يتصنَّع، ليس في نفسه مرارة، ولا ترتسم على وجهه أمارات الأمل الضائع، بل هو قانعٌ بنصيبه كلَّ القناعة، مغتبطٌ لما يحسبُ أنَّ مصر قد اجتازته من عقبات، وقطعَتْه من مراحل في سبيل استكمال استقلالها . . .

وسألت صديقي ـ وأنا في سبيل تحليل نفسه ـ عما إذا كان لم يشعر من الوفد بشيء من الجحود أن تركه منزوياً في وظيفة قاضٍ شرعي دون أن يعيده على الأقل إلى وظيفته الأولى التي اقتُلِعَ منها، وهو يجاهد في سبيل الحقّ والمبدأ والكرامة. فأجابني في غير تردد: إنه لا يرى رأيي، وإنه يعتقد أنه لو أراد أية وظيفة وطلبها من الوفد لم يكن ليبخل عليه بها، ولكنه لم يطلب شيئاً، وما كان له أن يطلب شيئاً، لأنه إنما فعل ما فعل، لا ابتغاء وظيفة أو جاه أو مال، ولكن إخلاصاً للمبدأ، وجهاداً في سبيل الحق، وإنه لينتقص من جهاده أن يسأل الجزاء عليه، وبحسبه أن أدَّى بعض الخدمات لوطنه، وإنه لقرير العين بما أدى، ولا يرى على ذلك جزاءً ولا شكوراً».

وفي قول السنهوري رحمه الله ما يدفعنا إلى التساؤل عن موقف عاطف بركات من أحمد أمين أخيراً. . ثم إلى الحديث عن أثره العميق في نفس أحمد أمين، لأنّه طبع صاحب (فجر الإسلام) بطابعٍ علميٍّ وخلقيٍّ ظلَّ لاصقاً به طول حياته! وفي إيضاح ذلك درسٌ عمليٌّ من دروس الأخلاق الرفيعة، التي نبحث عنها فلا نجدها إلا في الأوراق والسطور، وقلَّ أن نجدها إلا في أفذاذ الرجال.

أما (عاطف بركات) فقد تحدَّث أحمد أمين عن أثره في تكوينه

الخُلقي في صفحاتٍ كثيرة من (حياتي) وتلخيص ذلك مما يطول، ولكني أُوجزُ ما ذكره في سطورٍ من مقالٍ نشرَهُ في (فيض الخاطر) قال فيه[1]:

«كان من أكبر ما أثَّر فيَّ، اتصالي بعاطف باشا بركات، ناظر المدرسة، فقد كان رجلاً عادلاً، حازماً شجاعاً، لا يخشى في الحق لومة لائم، وساعدني على الاقتباس منه أنه اختارني لأكون مُعيداً له في دروس الأخلاق، وكان يدرِّسها من الكتب الإنكليزية، فحبَّب إليَّ أن أتعلمَ اللغة الإنكليزية، لأطَّلعَ على ما كتبه الإنكليز في الأخلاق، وكان اتصالي به في الأخلاق يُتيح لي فرصةَ الاختلاط به في الدروس وفي البيت وفي العِزْبة، وكان خارجَ الدرس يعلِّمني في كلِّ شيء، في الدين، وفي أخلاق الناس في مصر، وفي تجاربه في الحياة، مما ألقى لي ضوءًا لم أكنْ أعهده من قبل، وظلَّ يلقي عليَّ جمل دروس الأخلاق شيئاً فشيئاً حتى استقللتُ به، ولذلك لمّا مات حزنتُ عليه حزني على أبي، إذ كان هو أبي الروحي».

لقد صار هذا الرجل وكيلاً لوزارة المعارف، وهو يعلم أنَّ أحمد أمين قد فُصل من مدرسة القضاء بسببه وأُجْبرَ على الانتقال إلى القضاء مغضوبا عليه، فلِمَ لَمْ يُرجِعْهُ إلى مثل مكانه؟.

إنَّ الذي يمنعُ ذلك خُلُقُ عاطف الصارم الذي تحدَّث عنه أحمد أمين أيضاً في (فيض الخاطر) فقال[2]:

١ ـ أراد الخديوي عباس أن يُعطي أحدَ المدرسين بالمدرسة درجةً ماليةً أعلى من درجته، وأوفد إلى أعضاء مجلس إدارة المدرسة بذلك، فكلُّهم قَبِلَ نزولاً على إرادة الخديوي ورغبةً في المسالمة، ولكنَّ عاطفاً

---

(١) فيض الخاطر: ٩/ ١٩٢.

(٢) المصدر السابق: ١٠/ ١١٣ ـ ١١٤.

رأى أنَّ غير هذا الأستاذ أحقُّ منه، وفي إعطائه الدرجة ظلمٌ لآخرين، فأبى وأصرَّ على الإباء، ووضعَ نفسَه والمدرسة في أزمةٍ مع ناظر المعارف ومع السراي.

٢ ـ ومثَّل الدورَ نفسه مع سعد زغلول، إذ كان عاطف وكيلَ وزارة المعارف، ولسعدٍ زعيم الأمة كلُّ السيطرة على شؤون البلاد، ومصالح الحكومة، فطلب سعدٌ منه أن يقبل ابن (حمد الباسل باشا) في مدرسةٍ ثانوية، وكانت سنُّه تتجاوزِ السن القانونية بأشهر، فأبى عاطف، وقال: «إما أن نغيِّر القانون، ونقبل كلَّ أمثاله، وإما أن نرفض الجميع»، وغضب سعد من ذلك كلَّ الغضب، فلم يبالِ به.

٣ ـ أراد ناظرُ المعارف أحمد باشا حشمت أن يعيِّنَ مدرساً للخط في مدرسة القضاء، فاختار مدرساً من أحسن الناس خطّاً، وأحسنهم خُلقاً، ولكنَّ عاطفاً أبَى، لأنَّ قانون المدرسة يجعل اقتراح التعيين من حقِّ مجلس إدارة المدرسة، وليس من حق ناظر المعارف، إذ ليس له حقُّ الترشيح، ولكن حق القبول أو الرفض، وكانت أزمة، اضطر بعدها ناظر المعارف إلى الركون إلى ترشيح مجلس المدرسة! وأصابت المدرسة عنتاً شديداً من الوزير».

هذا الرئيس الملتزم الصارم، يعرفُ أنَّ أحمد أمين قد عُزل بسببه، ولكنَّه يعرف أنَّ أحمد أمين هو زوجُ إحدى قريباته، كريمة المستشار عبد الوهاب بك فهمي، وهو الذي زوَّجه إياها[1]، وهو بشعوره الخاص يتوهم أنه يُعتبَر متحيِّزاً له إذا أعاد إليه حقَّه! وهو شعورٌ بالغ المغالاة، لأنه لا يعطي المظلومَ أكثر من حقه، بل يتركه مظلوماً.

---

(١) أحمد أمين بقلم ولده (حافظ أحمد أمين)، ص٦٣.

مهما يكن من شيءٍ فقد كادَ عاطف أن يطبع أحمد أمين بطابعه الخلقي، فكثيراً ما عارضَ الرؤساء، وكثيراً ما تبرَّم به أصدقاؤه لالتزامه ما يعتقدُ أنَّه الحق، وقد جلا ذلك الدكتور طه حسين أظهرَ جلاءٍ حين قال في رثائه[1]:

«كان يريد أن يغيِّر الدنيا من حوله، وليس تغيّر الدنيا ميسَّراً للجميع، فكنتَ تراه دائماً قليل الرضى، موزَّع السخط، بين سرورٍ قليلٍ متقطِّع، وحزنٍ كثيرٍ يوشك أن يكون متَّصلاً، حتى أنكرَ كثيراً من أمره، وأنكرَ الناسُ منه كثيراً من أمره أيضاً. . . وربما تندَّر به زملاؤه وأصدقاؤه، وداعبوه في شيءٍ كثيرٍ من الحب والرفق، فسمّوه (العدل) ونادوه بهذا الاسم، وتحدَّثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث حتى كاد(العدل) يصبح اسماً ثانياً له، ولم يكن لهذا كلِّه مصدرٌ غير تحرُّجه المتصل، وتحفُّظه المقيم، وتعرُّضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنُّبه ما كان من الأمر يسيراً أو قريباً».

وأنا بعدما تقدَّم لستُ في حاجةٍ إلى أن أطيلَ الحديثَ عن سمات أحمد أمين، وملامح شخصيته، فإنَّ مفتاحَ هذه الشخصية هو الذي حدَّده الدكتور طه حسين في صفة (العدل) وهيامُ الرجل به، والعدل صفةٌ رفيعةٌ واسعة، تحمل فيها معاني كثيرة من معاني الصدق والإخلاص والمساواة، والنهوض بالواجب على أحسن صورة!.

وإذا كانت السموات والأرض قد قامتا بالعدل، فأصدقُ شيءٍ أن يكون الملتزمُ به من الناس لسانَ الحقِّ بين عارفيه! وأن يخشوا إغضابَه إذا حادوا عنه، وتلك عُليا مراتب الفضلاء.

---

(١) أحمد أمين بقلم أصدقائه، ص٥٨.

هذا عن الشخصية الخُلقية التي أثَّرت في تكوين أحمد أمين، أما الشخصية الإصلاحية العظيمة التي كانت منارَ أحمد أمين في مذهبه الإصلاحي علماً وسياسةً وتربيةً، فهي شخصية (الإمام **محمد عبده**)، هذا المصلح الكبير الذي لم يحضر أحمد أمين من دروسه بالأزهر غيرَ دَرسَين اثنين من دروس التفسير، كما ذكر ذلك، ولكنَّ إلمامه بسيرته، وتتبُّعه لمواقفه، وإيمانه برجولته، قد جعلَه إمامَ العصر في رأيه، وكثيراً ما تحدَّث عنه في مناسباتٍ كثيرة، يجدُ القارئ دلائلها في صفحات كتبه المتعددة، وقد خصَّه بترجمةٍ حافلة في كتاب (زعماء الإصلاح في العصر الحديث)، وسأحلِّله فيما بعد مع ما اشتهر من مؤلفاته، ولكنّي ألحظ في مقالات أحمد أمين الإصلاحية أثرَ الإمام واضحاً، وليس في ذلك ما يعيبُ الخالفَ الصالح إذا نهَجَ نهْجَ السالف الصالح، فقد نشأت حركة الإصلاح الديني في مصر متشبِّعةً بآراء الأستاذ الإمام، ومقتبسةً من روحه، حتى الذين كانوا يعادونه أكبرَ المعاداة قد عرفوا فضلَه بعد رحيله، مثل الإمام الكبير الشيخ (محمد بخيت المطيعي) الذي وصفَهُ بالإمامة والقدوة بعدما سلخَ دهراً في معارضة آرائه، فلم يكن أحمد أمين بِدْعاً في تشرُّب آراء الإمام وفي انتهاج منهجه، وقد قال عن الإمام ما ظلَّ أحمد أمين يبدئ ويعيد فيه متأثراً بنظراته الإصلاحية، أجل قال في الإمام ما يصلُحُ أن نقوله في أحمد أمين الآن، قال[1]:

«أشعرَ المسلمين أنَّهم يجب أن يهبُّوا من رقدتهم لإصلاح نفوسهم، وتكميل نقصهم، وألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم، بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم، ودعا إلى أنَّ العقلَ يجب أن يُحَكَّم كما يحكَّم

---

(١) زعماء الإصلاح، ص٣٣٧.

الدين، فالدين عُرِفَ بالعقل، ولا بدَّ من اجتهادٍ يعتمد على الدين والعقل معاً، حتى نستطيعَ أن نواجهَ المسائلَ الجديدة في المدنية الجديدة، ونقتبس منها ما يفيدنا، لأنَّ المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلةٍ، ولا بدَّ أن يتسلَّحوا بما تسلَّح به غيرهم، وأكبرُ سلاحٍ في الدنيا هو العلم، وأكبرُ عمدةٍ في الأخلاق هو الدين، ومن حُسْنِ حظِّ المسلمين أنَّ دينهم يشرح صدرهم للعلم، ويحضُّ عليه، وللعقل ويدعو إليه، وللأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها المدنية الحاضرة».

٣ ـ آراؤه ومحاوراته العلمية:

أ ـ آراؤه:

نـدعُ ما كتبَه الأسـتاذ أحمد أمين عن الثقافة الإسـلامية إلى مكانٍ آخر، حين نحلِّل كتبه العلمية تحليلاً يكشف عن جوهرها الثمين، ونتحدَّث عن مقالاتـه الإصلاحية التي تناثرت في المجلات، داعيةً إلى النهضـة العلمية، فهي بمجموعها تعطي تصوُّراً قوياً صحيحاً عن الإسلام في حقيقته الصادقـة، وتدعو إلى عودة عهده الزاهر بما يجب من عملٍ دائـبٍ وفهمٍ صحيح، لذلـك كان كلُّ ما دعا إليه من شؤون الإصلاح مسـتظلاً برايـة الإسلام ومستنداً إلى الدليل.

● **معنى التوحيد:**

ومن أبرز ما كرَّره الأستاذ في مقالاته فهمُه الصحيح لمعنى كلمـة (لا إلـه إلا الله) حيث غفل الكثيرون عن هدفها القويّ في صلاح الأمـة الإسلامية، وارتقائها الحتمي، لأنَّ معناها أنَّ ما سوى الله عابدٌ لا معبودٌ، فلا يصحُّ الخضوعُ لبشـرٍ على الإطلاق، لأنـه ذو امتياز، بل لأنه يدين

بالطاعة لله، وهذا المعنى يقضي على كلِّ فكرةٍ من شأنها وجودُ طبقةٍ يكون لها الحظوة والرئاسة، أو تكون ذاتَ وساطةٍ بين الخالق والمخلوق، فالكلُّ سواسيةٌ كأسنان المشط.

وهذه العقيدة في نظر الأستاذ تحتاج إلى رياضةٍ شديدة في تصفية النفس من الشوائب، وإلى رياضةٍ قوية كي يحتفظ الضعفاء بإيمانهم، فلا يركعوا للأقوياء، وتحتاج إلى أن يُلجمَ الأقوياءُ غرائزَهم، فلا يحاولوا السيطرةَ على الضعفاء.

وهذا مطلبٌ شاق، ولكنّه جوهر الإسلام[1]، فإنَّ أكثر شرور الإنسانية في الشرق والغرب ترجعُ إلى التألُّه من جانب الأقوياء، والركوع والخضوع من جانب الضعفاء، ويزول ذلك كلُّه لو آمن الجميع حقاً أنْ لا إلـه إلا الله!.

● **أسباب تأخر المسلمين:**

فإذا بحث الأستاذ عن أسباب تأخر المسلمين أرجعَ ذلك إلى بُعدهم عن معرفة سنن الله في الكون، فهي تسيرُ وفق نُظُمٍ دقيقة، لا شذوذَ فيها، وفي اتّباعها العزةُ والاستقلال، وفي مجافاتها الانحدارُ والاحتلال.

ومن أول هذه السُّنن **حِفظُ الأمة بالصالحين من أبنائها**[2]، إذ لا حياةَ لها بدون طائفةٍ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر! وكان اسمُ هذه الطائفة في العصور الأولى (أهلَ الحلِّ والعقد) وهم في هذه العصور أعضاء النيابة، الذين يُنتخبون بحريةٍ ويقين، ولهم معرفتهم بشؤون الناس،

---

(١) فيض الخاطر: ٩/ ٢.
(٢) المصدر السابق: ٩/ ٣٣.

وتدبير أحوال الأرض، ومن السنن أنَّ الرؤساء إذا طغوا، ولم يأخذ العقلاءُ على أيديهم كان مصيرُ الدولة الفناءَ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

ومن سنن الله في الكون أن تجنحَ الأمة للوحدة والاتحاد، فإذا تفرَّقت شيعاً وأحزاباً كان البأسُ شديداً حين ينزل بها، أما إذا توحَّدت في الخير والتعاون، فقد زال البأسُ، وحلَّ الرخاءُ. هذه أوائل سنن الله في خلقه ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً..

● **التضحية:**

ويبحث الكاتب عن وسائل ارتقاء الأمة الإسلامية، فيجدُ التضحيةَ من أهمِّ هذه الوسائل، ويرى أنها أصبحت من النّدرة بمكان، وأنَّ الدعوةَ إليها فرضٌ محتوم، وقد توسَّع في معناها على نحو ما نجدُ في قوله[1]:

«ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود في مواقف القتال، فليس هذا إلا مثلاً عالياً من أمثلة التضحية، ولكنْ هناك أمثلةٌ عديدةٌ في الحياة اليومية لكلِّ فرد، فالذي يتنازلُ عن لذَّته الفردية الضيّقة للمصلحة العامة الواسعة، يكون مضحّياً على قدر ما بذل، والموظّف الذي ينال شيئاً من العَناء لراحة الجمهور مضحٍّ، والغنيُّ الذي يتنازل عن بعض لذائذه لخير الناس مضحٍّ، والمزارع الذي يرعى حال فلاَّحيه مضحٍّ، وعلى قدر انتشار هذه الروح في الأمة يكون مقدارُ رُقيِّها ونجاحها.

فلا تفلحُ أمةٌ يبحثُ أفرادُها عن لذائذهم الشخصية فقط، مهما حَسُنَ تشريعُها، وصَلُحَ قادتها، فشَرِّعْ ما شئتَ لتنظيم التموين، فلن

---

(١) فيض الخاطر: ٣/ ٢٣٢.

تنجحَ ما دامَ كلُّ فـردٍ لا ينظرُ إلا إلى شـخصه، وشـرِّع ما شئتَ لتنظيم الضرائب، فلن ينجح مع محاولة الأفراد الهـربَ منها، وشرِّع ما شـئت لإصلاح الفلاّحين فسيظلُّون كما هم، ما دام التشريعُ لا يلقى مجاوبةً من نفوس القادرين، ولا تكون التضحيةُ حتى يتعوَّد القلبُ لذةَ العطاء كما يتعوَّد الأخذ، ويسعد لسعادة الناس، كما يتعوَّد أن يسعد لهناءته».

● **القومية والعالمية:**

وقد قام دعاة القومية في الغرب يشيدون بالقومية، مع أنها ارتفاعٌ بالوطن على غيره، وهتافٌ للوطن بأن يسودَ ويسيطرَ على ماعداه، وبسبب هذه القومية قامت الحرب العالمية، فأهلكت الحرثَ والنسل، وانتقلت العدوى إلى الشرق، فوجد من كتّابه من يهتف بالقومية على أنها سرُّ ارتقاء الأمة، دون نظرٍ إلى الأمم الأخرى، وأُلِّفت الكتبُ والأناشيد داعيةً إلى استعلاءٍ قوميٍّ يوحي بالبغضاء بين الشعوب.

ولكنَّ النابهين من القادة يعرفون ما جرَّت القوميةُ على الإنسانية من نكبات، ويرون الإخاءَ الإنساني أولى بالدعوة والتأييد على أنه في الواقع لا تعارضَ بين القومية في فهمها المعقول وبين العالمية، وهذا ما دعا إليه أحمد أمين، وكرَّرَهُ في عدّة بحوثٍ لا نستطيعُ الإشارةَ إليها، بل نملك أن نختار منها مثل قوله[1]:

«لقد رقى شـعورُ الإنسان، وسـما عقله حتى وفَّق بين مصلحته الشخصية ومصلحة أسرته، ثم رقي شعوره، وسما عقله حتى وفَّق بين مصلحة أسـرته ومصلحة أمته، فلماذا لا يخطو العالم الإنساني خطوةً

---

(١) فيض الخاطر: ٣/ ١١١.

أخرى في الرقيّ، فيوحِّد بين خير الأمة، وخير الإنسانية، ويرى خيرَ الأمة من خلال خير الإنسانية، ولا يرى الخيرَ لأمته إذا تعارض مع خير الإنسانية.

إنَّ المصائبَ التي يشهدها العالم، والفجيعة الفظيعة التي يئن بها في الأنفس والأموال والثمرات ستقرِّبه من هذه الغاية، وسيتمُّ هذا الأمل لو وفِّقَ قادة السياسة، فنظروا إلى العالم من علٍ، ومزجوا نظرتهم المادية بنظرةٍ روحية، وشعورهم القومي بالشعور الإنساني، وفكرتهم العلمية بفكرةٍ فلسفية أرقى».

هذا ما كتبه أحمد أمين منذ نصف قرن[1]، ولكن لم يتحقق، لأنه أَمِلَ خيراً في قادة الغرب، غافلاً عن أنهم أنانيون، يتحدثون بالمساواة والحرية لأممهم وحدَها، بل يتحدث كلُّ زعيمٍ منهم ناظراً لأمته فحسب، وبذلك خابَ الأملُ، وفشلت رسالةُ هيئة الأمم المتحدة، كما فشلت رسالةُ عصبة الأمم من قبلُ!.

● **الإلحاد وأسبابه وأثر الدين في الحياة:**

حلل الأستاذ بواعث موجة الإلحاد التي عمَّت أوروبة في القرن التاسع عشر، وبيَّن ما أدَّت إليه من قلق النفوس، واضطراب الحياة، وعلم أنَّ أثرها قد امتدَّ إلى الشرق تقليداً ومحاكاةً لا اقتناعاً ويقيناً، فكان من أثر ذلك أنْ فشت المقابحُ والمنكرات من قمارٍ وخمرٍ وتبرُّجٍ شائنٍ وانهماكٍ في الملذات، ونظر الملحدون فإذا هم قد فقدوا جُسومهم الصحيحة، بعد أن فقدوا إيمانهم المريح، وإذا هم قلقون حائرون! فصاح بهم الدكتور أحمد أمين طالباً أن يرجعوا إلى الدين الصحيح إذا أرادوا الشفاء، وأسهبَ

---

(١) كتب المقال أثناء الحرب العالمية الثانية.

في هذه الناحيَة إسهابَ المحامي المكين، الذي ملأ يدَه من براهين قضيته، وآمن بعدالتها عن جزمٍ لا يعرف التردد، فقال للذين يولّون ظهورهم للدين تقليداً ومحاكاةً:

إنَّ الدين يدعو إلى إجلال إلـهٍ خلقَ العالم ودبَّره، قويٍّ نستمدُّ منه القوة، عظيمٍ نستمدُّ منه العظمة، ذي كمالٍ تستمدُّ منه الروحُ كلَّ صفات الكمال، هو للعالم كإرادتنا فينـا، يدعو إلى التسـامح لا إلى التعصُّب، وإلى العفو لا الانتقام، وإلى الحبّ لا الكره.

وقد يصلُ بعض الناس في الدين إلى حبِّ الله كحبِّهم أنفسهم أو أشدَّ حباً، ويُعجبني في ذلك قولُ الرسول ﷺ: «نعمَ العبدُ صهيبٌ، لو لم يَخَفِ اللهَ لم يعصِهِ».

إنَّ الدين الحق يوسِّع النظر، ويُحيي الضمير، ويهدم الأنانية الفردية والأنانية القومية، لتحلَّ محلَّها عاطفةُ الأخوّة العالمية.

إنَّ أهمَّ وظيفةٍ للدين الحق أن يحوِّل العاطفةَ من أنانيةٍ شخصية إلى عاطفةٍ إنسانية تتجه إلى تحقيق الخير العام، وهذا الغرضُ يدعو إلى تغيير برامج التربية في العالم من أساسها، ووضعِ أساسٍ آخر هو حبُّه لله، وحبُّ الإنسان للإنسان من غير تفريقٍ بين جنسٍ وجنس، وأمةٍ وأمة، ولغةٍ ولغة ودينٍ ودين! وهذا ما ينقص العالمَ اليوم.

● **تحذيره من المدارس التبشيرية:**

كما كـان له موقفٌ حاسـمٌ من انتشـار المدارس الأجنبية في بلاد الإسلام، فلم يُخدَع بما تتَشح به من منظرٍ خادع، وكتبَ مراراً في محاربة التعليم الأجنبي، وهو ما بُحَّ في الحديث عنه الوعّاظُ على المنابر، ولكنَّ حديثَ الوعاظ كان يقابَل بالهجوم الظالم من ذيول المبشّرين في الصحف،

بدعوى أنهم شيوخٌ متعصّبون، فلمّا كتب الدكتور أحمد أمين نقدَه اللاذع، عرفتْ هذه الذيول أنَّ الزمامَ قد أفلتَ من أيديها، وأنَّ أمثال أحمد أمين ومحمود أبي العيون وعبد الحميد سعيد إذا هاجموا فبالمنطق المُفحِم، والشاهد الملجِم.

وقد قال أحمد أمين فيما قال ناقلاً من كلام المبشرين أنفسهم:

«إنَّ أهدافَ المدارس والكليات التي تُشرِفُ عليها هذه البعثات، هي التنصيرُ، حتى إنَّ الموضوعات التي تُعلَّم فيها، كالجغرافية والتاريخ تحمل معها آراءَ النصرانية، وإنَّ التعليمَ أنفعُ وسيلةٍ يستغلُّها المبشّرون لتنصير الأفراد، فقد اشترطوا في مدرّسي هذه المدارس أن يكونوا مسيحيين ما أمكنَ، لأنَّ دينَ المعلّم يؤثّر ولو من طريقٍ خفيّ في تلاميذه، ولذلك تحتفظ هذه المدارس ما أمكن بوضعِ منهجٍ خاص يُحقِّق أغراضها، ولا يسيرُ على مناهج البلاد، إلا إذا اضطُرت إلى ذلك اضطراراً.

ومن مكرهم أنهم رأوا أن يوجِّهوا أكبرَ همّهم إلى تعليم البنات، فأنشؤوا لهنَّ المدارس الخاصة، علماً بأنَّ البنات سيكنَّ أمهات، فإذا كنَّ قريباتٍ من النصرانية أثَّرنَ في أولادهنّ، وإنَّ الأمم الحية الحريصة على توحيد كلمتها، وتوحيد آمالها تصبُّ أبناءها في قالبٍ واحد، حتى يكونوا متفقين متساندين.

أما هذه المدارس فتجعلُ أبناء البلاد شيعاً، كلُّ طائفةٍ تصطبغُ بصيغةٍ خاصة، وإذ ذاك تتضاربُ الميول، ويكون أبناء البلد الواحد بعضُهم أعداء بعض، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى»[1].

---

(١) فيض الخاطر: ١٠/ ١٥٢.

● **دعوته إلى الاجتهاد في التشريع :**

وللأستاذ مقالاتٌ شتى في الدعوة إلى **الاجتهاد في التشريع**، وهي مقالاتٌ وجدتْ صداها، لأنَّ الأستاذ لم يكن واحداً في هذه الدعوى، بل كان تلاميذُ (الإمام محمد عبده) وهم صفوةُ أعلام الفكر الإسلامي قد بدؤوا خطوات الاجتهاد، فوُفِّقوا إلى نتائج شافية، وقد قامت مجامعُ الفقه والبحوث الإسلامية في العالم الإسلامي بما يعدُّ ثروةً ثمينةً لمن أراد أن يجدَ البحث المستنير، كما قام الأصلاء من أساتذة كليات الشريعة والحقوق ببحوثٍ مستفيضة غمرت المكتبةَ الفقهية بسيلٍ منهمر.

ولكني أقفُ حائراً أمام قول الأستاذ أحمد أمين: «**ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونةً واجتهاداً ما التجأَ إلى القوانين الأوروبية ينقلها بحذافيرها، من غير مراعاةٍ لوطنه**»[1]، **لأنَّ حركة التجديد الفقهي قد بدأت في تركية قبل خمسين عاماً من عهد أتاتورك، وظهرت (المجلة العدلية) في عدّة أجزاءٍ متوالية تضعُ الموادّ الفقهيةَ في ثوبها الجديد، وتفسحُ للتجديد الفقهي مكانه المستريح، ولكنّ أتاتورك كان كارهاً لكلٍّ ما ينتمي إلى التراث الإسلامي كراهةً عمياء! وقد طاردَ فقهاء الدولة مطاردةً منكرة، فهاجروا إلى مصر والشام والهند آسفين.**

ب ـ محاوراته مع معاصريه:

أُفردُ هذه الفقرة للحديث عن نقاشٍ علمي زاوله الأستاذ أحمد أمين مع نفرٍ من حملة القلم في عصره، لأُرِي القارئ مثلاً للموضوعية البريئة

---

(١) فيض الخاطر: ١٠/ ٢٢١.

من التعسف والافتعال، فنحن في حاجةٍ إلى أن نتعلَّم كيف نُبعد أهواءَنا عن ميدان الجدل، لنصلَ إلى الحقِّ من أقرب طريق.

١ ـ مع العقاد:

كانت صفحة النقد بمجلة (الثقافة) إحدى ميادين الجدل التي يرتادها أحمد أمين، وقد تعمَّد الإيجازَ الهادف، لأنه يتحدث غالباً في المقال الواحد عن أكثر من كتاب، ومن جولاته في هذا المجال ما ناقش به الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد) ناقداً كتابَه (عبقرية الإمام)، إذ بدأ نقدَه بإشارةٍ خاطفة إلى ما ذكره من قبل عن عبقريتَي محمد وعمر، ليصلَ إلى الكلام عن عبقرية الإمام فيقول[١]:

«كلُّ ما لاحظناه من فرقٍ أنَّ المؤلفَ الفاضل إنْ كان في كُتبه الأولى فنّاناً وقاضياً، فهو في هذا الكتاب محامٍ أولاً وفنّانٌ ثانياً، فقد تعرَّض الكتاب إلى الدفاع عن الإمام علي في مواقف النزاع مع خصومه، أكثر مما تعرَّض لرسم شخصيته، ولعلَّ جوَّ الكتابة في عليٍّ رضي الله عنه قد قضى بذلك، فقد كانت حياتُه السياسية نزاعاً لم ينتهِ حتى بالموت، فقد ظلَّت الخصومةُ بين أنصاره وخصومه قائمةً حتى اليوم، تتَّخذُ شكلَ حربٍ بالسيف، فإذا أُغمد السيف قامت خصومةُ الكلام، فيظهرُ أنَّ طبيعةَ الجو أثَّرت في المؤلف الفاضل، فاتَّخذ في ذلك موقف المدافع المناضل.

وآخُذُ على المؤلف اعتماده أحياناً على ما رُويَ من غير كبير نقدٍ، كاعتماده على كثيرٍ مما رُويَ في نهج البلاغة، كوصف الخفاش والطاووس ونحو ذلك، وفي رأيي أنه لو عُرِضَ على محك النقد من مقارنته بالأساليب

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٢٥٤) ـ ٩/ ١١/ ١٩٤٣م.

المعروفة في ذلك العصر، لرجحَ أنها موضوعة.

وكما في رواية حديث سوْءة عمرو فإنها بالروايات والقصص أشبهُ، ولم أجدْ هذه القصــة عند المؤرخين الثقات من أمثـال الطبري حَسْـبما اطّلعتُ.

والمؤرخون الأثبات إذا رووا هذه القصة حَكوْها بصيغة التمريض، كمــا يعبِّر إخواننــا الأزهريون، فالمســعوديُّ يقول: «وقد قيل في بعض الروايات»، وابنُ عبد البر في (الاستيعاب) يقول: «ـ فيما ذكروا ـ» وكلُّها تعبيراتٌ تدلُّ على الشك فيها، وعدم الجزم بها، وكالذي رُوي من وضيعه علم النحو، فتقسيمُ الكلمة أشبهُ بالتقسيم المنطقي اليوناني، وهذا كلُّه نابٍ عن طبيعة العصر، وهذا لا يقدحُ في الكتاب وقيمته، فقد جلّى نواحيَ كثيرة من نواحي عظمة الإمام، وكم له من نواحٍ عظيمة، وقد حلَّل المؤلف كثيراً من المواقف تحليلاً نفسياً واجتماعياً بديعاً فنشكره ونستزيده».

وقد طالعَ العقادُ ما كتب صاحبُه، وقام بالردِّ عليه في مجلة (الرسالة) ـ العدد (٥٤٣) ـ فلجأ إلى التخريج الذهني، وهو أبرعُ من يتَّخذه سلاحاً بين الكاتبين، وقد نسي أنَّ حقائقَ التاريخ الثابتة لا يُجدي معها تخريجٌ ينقلها من الثبـوت إلى الاسـتحالة، كما أنَّ الروايات المُنتقَدة لا يكـون التخريجُ وحدَه دليلَ حدوثها، فالعقادُ يرى أنَّ المقياس في هذه الأمور عنده أن نجزمَ بدليلٍ قاطع، أو ننفي بدليلٍ قاطع، وأما الترجيحُ، فالقولُ في قوته وضعفه على مشابهة القول المرجّح للمعهود والمعقول، فإنْ كان هذا القولُ مشابهاً لهما فلا ضيرَ من الأخذ به على أية حال، كأن تعلمَ أنَّ فلاناً رجلٌ محسن، فلا يضيرُ بعد ذلك أن يقال إنه أحسنَ بدينارٍ في يومٍ من الأيام، وهو في اليوم نفسه لم يحسن بدينار، أو يقالَ: إنَّ (فلاناً) لصٌّ

معروف، فلا ضيرَ في أن يُتَّهمَ بسرقة رجلٍ بعينه، وهو لم يسرقْ منه بل سرق من رجالٍ آخرين.

ومضى العقاد يتحدَّث عن المآخذ. بهذا الضرب من التخريج، مما أراه ذكاءَ عقلٍ فحسبْ لا حجةً بالغة.

٢ ـ مع زكي نجيب محمود:

ومحاورةٌ ثانية، كان الدكتور زكي نجيب محمود أحدَ طرفيها مع الدكتور أحمد أمين، حيث كتبَ الأول مقالاً ينعَى فيه على المحققين للتراث العربي اهتمامَهم بنشر المخطوطات، إذ رأى أنَّ الفكرَ الأوروبي أجدرُ بالذيوع والترجمة من مؤلفاتٍ مضى زمنها! وقد قال فيما قال[١]:

«الكتابُ القديم المبعوث من قبره هو كالكرَّاسة القديمة نعثُر عليها تحت الأثاث المخزون، ونتصفَّحها فنجدها أثراً جميلاً من آثار الطفولة، فهي الكراسة التي كنا نكتب فيها الحسابَ أو الإنشاءَ ونحن في المدرسة الأولية، فنبتسم لها ابتسامة الإشفاق، ونمسحُ عنها التراب، ونضعها في ركنٍ من خزانة الكتب احتفاظاً بذكرى يومٍ مضى، ولكنَّ الأمرَ ينقلبُ جنوناً إذا جعلنا هذه الكراسة بعد ذلك شُغلنا الشاغل، نقرأُ فيها قراءةَ من يتوهَّمُ الجدَّ في عمله... ماذا يكون مصيرُ الأجيال الجامعية الناشئة حين تتلفتُ في عالم الكتب العربية، فلا تجدُ على رفوفها إلا الهياكلَ العظمية التي أخرجناها من قبورها، ولففناها بورقٍ أبيض ناصع، وقلنا هاكمُ الأزاهرَ النّضرة، فاملؤوا خياشيمكم بشذاها. وهكذا سيمضي الغربُ في طريقه، وسنمضي، هو يشتغل بتفتيت الذرّة، ونحن نعبث بتشقيق

---

(١) مجلة الثقافة: ٢٧/ ٨/ ١٩٥١م.

الشعرة، سيمضي الغرب في طريقه وسنمضي، هو يحاولُ الصعود إلى ذُرى السماء، ونحن نحفر الأجداث لنستخرجَ الرِّمَمَ».

هذا بعضُ ما قاله الدكتور زكي! والرجلُ يدَّعي أنه حارس المنطق في عصره، فما بالُه يلجأ إلى التشبيهات الخيالية المموهة، ليبنيَ عليها حجَّته! فقد شبَّه كتب التراث بكرَّاسات الأطفال تارةً! وبالهياكل العظمية تارةً! وبنى حجَّته السوفسطائية على التشبيه!.

وقد يقول له قائلٌ: إنَّ الذي وجدناه لدى كتب الأجداد دُرَرٌ مضيئة أو ذهبٌ متوهج، ويمضي في التشبيه ليحسّن كُتب التراث! وبذلك يفقد الكاتبُ منطقَه لدى الحجة، ويتركُ الحقائقَ ليسبحَ في الخيال الموهوم! وما كان الظنُّ بالرجل الذي كتبَ صفحاتٍ في قيمة اللفظ وتحديد معناه، أن يجعلَ أسلوبَه خطابياً رجراجاً تُمسكه فلا ينضبط.

وقد كان الدكتور أحمد أمين على حقٍّ حين فزعَ من هذا المنطق الخاطئ، فعارضه أو هدمَه بمقالٍ صائبٍ قال فيه(١) بعد مقدمةٍ جيدة تمهّد للموضوع:

«الذي أعرفُه من قديمٍ أنَّ الدكتور معجبٌ بالمدنية الغربية لا إلى حدّ، ناقمٌ على التراث العربي لا إلى حد، ولكن ما رأيُه في أنَّ الغربيين أنفسَهم أسَّسوا نهضتهم على المدنية اليونانية والرومانية، ولم يتركوا صغيراً ولا كبيراً منها، ولا قيّماً ولا تافهاً إلا فعلوا فيه ذلك، حتى طبّهم وكيمياؤهم وطبيعتهم، علماً بأنَّ التافه في نظرهم قد يكون غير تافهٍ في نظر غيرهم، بلْ ما رأيه في أنَّ المستشرقين أرادوا أن يفهمونا، فنشروا أصولَ

---

(١) مجلة الثقافة: ٣/ ٩/ ١٩٥١م.

الأدب العربي، ونحن مدينون لهم بأكثر الكتب العربية القديمة، بل ما تعلّقُ الدكتور بالمدنية الغربية، وجريُه وراءها، وتحبيذه لكلِّ ما تأتي به، كأنَّها مدنيةٌ معصومةٌ من الخطأ، مع أنَّ فلاسفتَهم وعلماءَهم يقرُّون بأنها مملوءةٌ بالعيوب.

إنَّ واجبَنا أن نؤلف الكتب الجديدة في فهم المدنية الغربية، ولكنَّ واجبنا أيضاً أن نفهمَ أصلنا، وتراثَ آبائنا، وليس جانبٌ منهما أولى بجانب، وعندنا من الأدباء مدرسةٌ تتبع القديمَ، وأخرى تتبع الجديد وثالثةٌ تأخذ من هذه وتلك، فلا لومَ علينا إذا حاولنا أن نفهمَ مصدر تلك المدارس، وكما يُعاب مَن قَصرَ نظرُه فلا يرى إلا القديم، كذلك يعابُ مَن قصرَ نظره فلا يرى إلا الجديد، وهؤلاء علماءُ الطب الغربيون الذين يمجِّدهم الدكتور، يمجِّدون ابن سينا وقانونه، فلماذا لا نمجِّده مثلهم، فهل يحلُّ للغربيين تراثُنا، ويحرم علينا؟ أم هي النظرة المغالية التي تتحيَّز ولا تعدل؟!!.

لقد كان الدكتور أحمد أمين رفيقاً بصاحبه! وأنا أعلم أنَّ مقالاتٍ شتى كُتبتْ في الرد على الدكتور زكي، وكان حينئذٍ يتولَّى الإشرافَ على تحرير (الثقافة)، فحالَ دون نشرها! أعلمُ ذلك لأني كتبتُ حينئذٍ مقالاً يهدم فكرتَه، فلم أجدْ صدًى لديه، مع أنني كنت أنشر بالثقافة دون أن أجدَ من يمنع!.

٣ـ مع الدكتور عبد الوهاب عزام:

أـ قضية العامية والفصحى:

لقد أفرَد الأستاذ أحمد أمين بحثاً ذهب فيه إلى أنَّ العامة وهم أكثر الأمة، وعصبُها الممتد في المزارع والمصانع والمتاجر لا ينتفعون بآثار

الكتّاب المعاصرين، لأنَّ هؤلاء يكتبون باللغة العربية الفصحى، وأولئك لا يفهمونها، وبذلك تُطبع الكتب، وتُنشر المقالات، وتُلقى الأحاديث بالمذياع، ولا يفيد ذلك العامة في شيءٍ، لأنَّ اللغة العربية أعلى من مستواهم الفكري، ولا بدَّ أن نكتب بلغةٍ تتفق مع عقلياتهم، وتقرِّب لهم ما ينزح عن عقولهم من الأفكار.

ويرى الأستاذ أننا إذا أردنا النهوضَ بالمجتمع العربي في شتى بلاد الأمة العربية، فعلينا أن نتَّجه إلى تحسين عقلية الفلاح والعامل، ولا نقتصر على العدد المحدود من طلبة المدارس، فإنَّ الفلاح والعامل يمثّلان السواد الأعظم، وهما يبحثان عن الزاد الثقافي فلا يجدان ما يستطيعان هضمه.

وإنَّ الفرقَ بين اللغة العامية واللغة الفصحى قد أوجدَ فريقين متنافرين في الأمة، فريقاً يرتقي إلى الذروة وهو القليل، وفريقاً يعيش في السفح المنحدر وهو الكثرة الكاثرة، وتبعاً لذلك فلا بدَّ من وجود لغةٍ سهلة بريئة من الإعراب، حيث تُسكَّن أواخر الكلمات، ومتخفِّفة من كلِّ لفظٍ لا يدركه العاميُّ بسهولةٍ، وإذ ذاك يستطيعُ سامعُ المذياع أن يفهمَ كلَّ ما يلقى إليه، ويستطيع من يلمُّ بمبادئ القراءة والكتابة أن يتلو ما أمامه فيفهمه دون عسرٍ، ومتى أتيحَ ذلك تعلَّم الشعبُ جميعه، وارتقى الذوقُ والفكر والإحساس جميعاً من وراء هذا التعلُّم، أما إذا انفصلت الفصحى عن العامية هذا الانفصالَ المشاهَد، فلا أثر جدّياً لأيِّ إصلاح!.

هذه خلاصة ما كتبه الأستاذ أحمد أمين بالسنة السادسة من مجلة (الثقافة[1]) وهو ما كان موضعَ اعتراضٍ من الدكتور عزام حيث بدأ ردودَهُ

---

(١) يراجع القارئ الأعداد: ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤ من مجلة الثقافة، السنة السادسة ١٩٤٤م.

بقوله: إنه يخشى أن يرى الأستاذ في ردوده المتتابعة ما يغضبه، ولكنه يعلم أنه ذو آراء كثيرة جداً، وأنّي لا أجادلُه إلا قليلاً، وربّما مضت الأعوام تلو الأعوام ولا أتعرَّض له بنقد، ولكني أرى في مقاله عن العامية والفصحى نزوعاً إلى الثورة الفكرية من أجل الإصلاح، والثورة إذا لابستْ رأياً أو بحثاً عرَّضته كثيراً إلى التعسُّف والمغالاة، واضطراب الصلة بين المقدمات والنتائج، وإذا كان الأستاذ يرى أنَّ هناك فروقاً بين أدبَي الخاصة والعامة، فهذا موضعُ اتفاق، ولكنَّ دعواه أنَّ العامة لا نصيبَ لهم مما يكتب أدباؤنا وشعراؤنا فتحتاجُ إلى تحديد، لأنَّ العامة في القديم والحديث لم يكونوا على بُعدٍ من العربية الفصيحة، لأنهم يفهمون مواعظَ المساجد، وأحاديث المذياع، وما يُكتب في الجرائد اليومية، وكلها مدوَّنةٌ باللغة الفصيحة.

فالعاميُّ يفهمُ كلَّ ما يسمع إذا كان الموضوع قريباً إليه، والقرآن والحديث وخطب المساجد والجرائد، تُقرأ على العامة فيفهمونها، إلا إذا كان الموضوعُ أعلى من عقولهم، وأسمى من أفكارهم، ومنشورات الحكومات العربية تُكتب باللغة العربية الفصحى، ويفهمها الناس دون مشقة.

أما ما أصابَ فيه الدكتور عبد الوهاب عزام المحزَّ فقوله ما فحواه: إنَّ الذي جعل خلافاً كبيراً بين الناس في فهم اللغة العربية ليس اللغة ذاتها، ولكنَّه الاختلاف في الفكر والثقافة، فهبْ أنك كتبتَ الأدب العربي بلغة العامة، حاوياً شجوناً من ألوان الثقافة الفكرية، فلن يقرأه العامة، وإذا قرؤوه لفظاً، فكيف يدركون ما فيه من دقائق تدقّ على إدراكهم، وتبعد عن معارفهم، فليس الفرق اللغوي الذي ذكره الأستاذ إلا مظهراً من مظاهر كثيرة لحقيقةٍ واحدة، وهي اختلافُ الثقافة اختلافاً بيّناً، وإذن فكيف يكون التقريبُ في هذه الحالة؟ أيكون بنزول العلماء إلى جهالة الجهّال، أم برفع

الجهّال جهد الطاقة إلى ثقافة العلماء؟ .

وتابع الدكتور عزام ردَّه بما يفيدُ أنَّ الأستاذ أحمد أمين كان جريئاً جرأةً تدعو إلى العجب، حين دعا إلى اصطناع لغةٍ عربية خالية من الإعراب، فتكون هي اللغة التي يجب أن نعتمد عليها في نشر التعليم بين العامة، ويكتب بها الأدباء بعض رواياتهم، ويؤلف بها بعضُ المؤلفين الكتبَ الشعبية، ويتحدَّث بها المتحدِّثون في الراديو، والخطباء في خطبهم الشعبية، وقد نسي الأستاذ أنَّ الإعراب هو الذي يحدِّد المعنى، وأنَّ آخر الكلمات إذا كان ساكناً سيحدث الاضطراب، ولذلك نجد النحاةَ في الكلمات التي تُعرب إعراباً مقدَّراً لا تظهر عليه الحركة يُوجبون أن يتقدَّم الفاعلُ على المفعول في مثل قولك ضربَ موسى عيسى ليتعيَّن الفاعلُ بالتقديم.

وإذا كان الإعرابُ من مصاعب اللغة العربية فهو من ناحيةٍ ثانية دليلٌ على ارتقائها، لأنَّ الكمالَ في هذا العالم قرينُ التركيب والتشعيب، وكذلكم اللغات ترى فيها الساذجة التي يتفاهم أهلها بألفاظٍ قليلةٍ يسيرة، تكمِّلها الإشارات، ولا يتبيَّن فيها اسمٌ من فعل، ولا ماضٍ من مستقبل، ثم تجد بعد هذا تميّزاً في الصنع والتراكيب.

واللغة العربية ـ فيما أعلم ـ أدقُّ اللغات نصيباً من هذا الكمال، وأعظمها عنايةً بالتفريق بين المعاني المتقاربة، ومن ذلك كانت كثرةُ قوانينها ودقتها، فهي لغةُ أوزانٍ ومقاييس، ولغةُ اشتقاقٍ وتصرُّف.

وهذا الإعرابُ من أعاجيب هذه اللغة، وهل هو إلا إحساسُ اللفظ بموقعه، وإحساسُ المتكلِّم بمكانة اللفظ في نفسه؟ أليسَ الإعرابُ تفريقاً في الجملة بين العُمدة من ألفاظها والفَضْلَة، وإعطاء الأول حركةً قوية،

والثاني حركةً أضعف منها؟ أليس الضمُّ يعبّر عن أقوى الأصوات، والفتح بعده ثم الكسر؟ وهو ضربٌ من الدلالة، ونوعٌ من الموسيقى يختم كلَّ كلمةٍ بحركةٍ أو تنوين[1]!.

هذه خلاصةُ ردّ الدكتور، وقد راعى جانب الصداقة حين لم يشر إلى أنَّ الأستاذ مسبوقٌ بهذا الرأي، إذ هتف به بعضُ الدخلاء على اللغة لعجزه عن سبر غورها، وقد قال: إنه مكثَ أربعين عاماً يقرأ النحو ولا يدرك مغزاه، والأستاذ أحمد أمين ابنُ اللغة، ووارث علم الأزهر ومدرسة القضاء فكيف تابعَ سواه؟؟.

ب ـ قضية الفلسفة:

وهذه قضية تابعَ فيها الدكتور أحمد أمين سابقيه ممَّن أرَّخو للفلسفة من أساتذة كلية الآداب حين أكَّدوا أنَّ الفلسفة اليونانية هي أصلُ الفلسفة، وألاَّ شيءَ قبلها، وهو معنًى أكَّده الدكتور طه حسين في عدة محاضرات، وسجَّله بإفاضة في كتابه (قادة الفكر) وجاء الدكتور أحمد أمين ليقولَ في كتاب (قصة الفلسفة اليونانية) الذي ألَّفه بالاشتراك مع الدكتور زكي نجيب محمود بأنَّ الفلسفة الحقيقية لم تُعرف إلا في بلاد اليونان، وأنَّ ما كان من مسائل الفلسفة معروفاً عند البابليين والآشوريين والصينيين لا قيمةَ له في النظر الصحيح، ونصّ كلامُ المؤلفين صراحةً هو هذا[2]: «لم تستمدّ الفلسفةُ اليونانية أصولَها من تلكم الأمم القديمة، ولكن خلقَها اليونان خلقاً، وأنشؤوها إنشاءً، فهي وليدتهم وربيبتهم ليس في ذلك ريبٌ ولا شك».

---

(١) مجلة الثقافة، العدد (٢٨٤).

(٢) الفلسفة اليونانية، ص١٦.

هذا الجزمُ الأكيدُ قد قام الدكتور عزّام بتفنيده، ونجدُ من النفع العام لتاريخ الفلسفة أن ننقله جميعه، إذ لا يزالُ بعض الدارسين في الجامعات العربية يتناقلونه، وكأنّه شيءٌ بدهيّ:

يقول الدكتور عزام[1]: «فأمّا ادّعاءُ أنَّ الفلسفة على هذا النحو لم تنشأ إلا عند اليونان، فهو مجازفةٌ، ولو اطَّلعْنا على فلسفة الهند مثلاً لاقتصدنا في هذه الدعوى، ولعلَّهما يُسمعان[2] (الناس) عمّا قليلٍ بقصة الفلسفة الشرقية كما أسمعا الناسَ قصة الفلسفة اليونانية.

وقد ذكرا في أول الفصل الثاني أنَّ فيثاغورس رحل إلى مصر، وإلى بلاد الشرق، وقالا في آخره: «وأنتَ ترى من ذلك أنهم (الفيثاغورسيين) خَطَوْا بالفلسفة خطوةً جديدة نحو التفكير المجرَّد، فبدأت الفلسفةُ منذ ذلك الحين تتحلَّل بعضَ الشيء من تلك النزعة الطبيعية التي سادت عند فلاسفة (أيونية) لتستقبلَ صبغةً جديدة، هي صبغة الفلسفة في أصحِّ معانيها، أعني التفكيرَ المحضَ فيما وراء الطبيعة وظواهرها».

وقالا في الفصل السادس: «إنَّ ديمقريطيس كان واسعَ العلم، راغباً في تحصيله رغبةً حارةً... وقد حفزته تلك الرغبة الملحّة في التحصيل إلى الرحلة في أقطار الأرض، فزار مصر، وجاسَ خلالها، وعرَّج على بابل، وطاف بأنحائها، فإذا كان فيثاغورس الذي تعلَّم في مصر، ورحل إلى الشرق قد نحا في الفلسفة منحًى جديداً، وارتقى بها إلى التفكير المجرّد الذي هو أقرب إلى الشرقيين، فلِمَ نجزمُ جزماً أنَّ فلاسفة اليونان

---

(١) مجلة الرسالة ـ العدد (٩٨) ـ: ٢٠/ ٥/ ١٩٣٥م.
(٢) المؤلفان أحمد أمين وزكي نجيب محمود.

لم يتصلوا قط بالأمم الأخرى، وأنَّ ديمقريطيس وهو إمام مذهب في الفلسفة، رحلَ إلى مصرَ وإلى بابلَ في طلب العلم، فكيف نجزم بأنَّ اليونان لم يأخذوا عنهم (ليس في ذلك ريبٌ ولا شك)!.

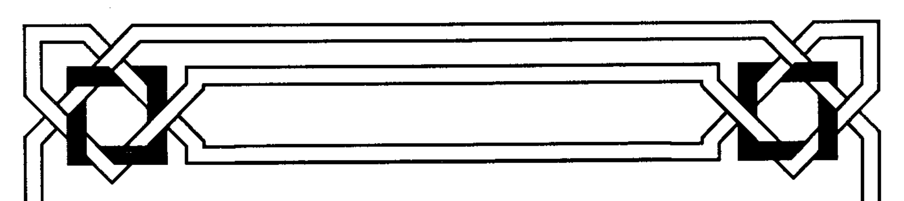
وإذا كان الدكتور أحمد أمين وزميله لم يكتبا عن (الفلسفة الشرقية) كما تمنَّى عليهما الدكتور عبد الوهاب عزام، فإنَّ باحثاً آخر هو العلاّمة الدكتور محمد غلاب قد أفردَ فلسفةَ الشرق ببحثٍ ضافٍ[1].

هذه مناقشةٌ جادة فيها المثل الجيد في تجنُّب اللغو، والبعد عن التعالي، واحترام المناقشين، وهي آدابٌ يجب أن تعود بعدَ أن بَعُدَ العهدُ بها، ولها نظائرُ أخرى فيما ترك الأستاذ من تراثه الحفيل[2].

* * *

(١) (الفلسفة الشرقية) للدكتور محمد غلاب.

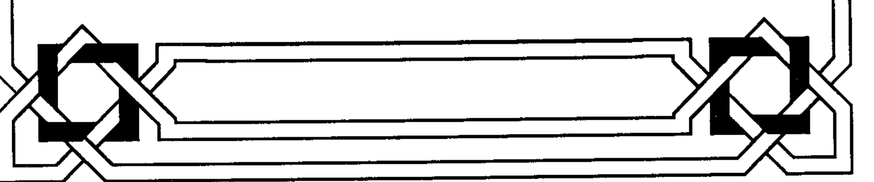
(٢) كمناقشته لزميله الدكتور عبد الحميد العبادي حول لقب السفاح، ومناقشته لتوفيق الحكيم حول مستقبل الأدب العربي، ومناقشته للدكتور عزّام حول جناية الأدب الجاهلي، ولم تشذّ عن هذا إلا مقالات الدكتور زكي مبارك!!.



الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته

أولاً: مؤلفاته

ثانياً: الحديث عن أشهر مؤلفاته





الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

أولاً: مؤلفاته

١ ـ فجر الإسلام، (الناشر مكتبة النهضة).

٢ ـ ضحى الإسلام (٣ أجزاء)، (الناشر مكتبة النهضة).

٣ ـ ظهر الإسلام (٤ أجزاء)، (الناشر مكتبة النهضة).

٤ ـ يوم الإسلام، (الناشر دار المعارف).

٥ ـ حي بن يقظان، (الناشر دار المعارف).

٦ ـ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، (مكتبة النهضة).

٧ ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث، (الناشر مكتبة النهضة).

٨ ـ الأخلاق، (الناشر لجنة التأليف).

٩ ـ حياتي، (الناشر مكتبة الآداب).

١٠ ـ فيض الخاطر (١٠ أجزاء) وهو مجموع مقالات أدبية واجتماعية وسياسية، (الناشر مكتبة النهضة).

١١ ـ الشرق والغرب، (الناشر مكتبة النهضة).

١٢ ـ النقد الأدبي (جزءان)، (الناشر لجنة التأليف).

١٣ ـ هارون الرشيد، كتاب الهلال، (الناشر دار الهلال).

١٤ ـ الصعلكة والفتوى في الإسلام ضمن سلسلة اقرأ، (الناشر دار المعارف).

١٥ ـ المهدي والمهدوية ضمن سلسلة اقرأ، (الناشر دار المعارف).

١٦ ـ إلى ولدي، (الناشر مكتبة الآداب).

● كتب بالاشتراك:

١٧ ـ قصة الفلسفة اليونانية (مع الدكتور زكي نجيب محمود)، (الناشر لجنة التأليف).

١٨ ـ قصة الفلسفة الحديثة (مع الدكتور زكي نجيب محمود)، (الناشر لجنة التأليف).

١٩ ـ قصة الأدب في العالم (٤ أجزاء) (مع الدكتور زكي نجيب محمود)، (الناشر مكتبة النهضة).

● كتب اشترك في تحقيقها:

٢٠ ـ الإمتاع والمؤانسة.

٢١ ـ ديوان الحماسة.

٢٢ ـ العقد الفريد.

٢٣ ـ الهوامل والشوامل.

٢٤ ـ خريدة القصر وجريدة العصر.

● كتب مدرسية :

٢٥ ـ المنتخب من الأدب العربي .

٢٦ ـ المفصل في الأدب العربي .

٢٧ ـ المطالعة التوجيهية .

٢٨ ـ تاريخ الأدب العربي .

● كتب مترجمة :

٢٩ ـ مبادئ الفلسفة ، (الناشر لجنة التأليف) .

* * *

ثانياً : الحديث عن أشهر مؤلفاته

١ ـ فجر الإسلام

الحياة العقلية في الإسلام

قامتْ شهرةُ الأستاذ أحمد أمين الحقيقية على ما كتَبه من تاريخ للحياة العقلية في الإسلام في سلسلته عن فجر الإسلام وضحاه وظهره، لأنّه فاجأ الناس بجديد في منهج البحث، وفي أسلوبه ونتائجه، فأبدى وجهاً للكتابة التحليلية لعقل الأمة الإسلامية لم يبد من قبلُ على هذا النحو، لذلك صارت هذه السلسلةُ عماد كلٍّ باحثٍ أتى من بعده، فقد انتشرت كليّات الجامعة، وتهيأَ أساتذتُها للكتابة في مثل ما تصدّى له أحمد أمين، وأشهدُ أنّ روح الباحث الكبير كانتْ مسيطرة بوضوح على جُلّ (وأقول جل عن ثقة علمية قوامها المشاهدة الملموسة) من جال مجاله في تاريخ العقل العربي، وقد يكون من بحوث المستشرقين ما أضاف الجديد في هذا النطاق، وقد يكون من بحوث الخالفين ما انتفعَ بهذا الجديد فامتدَّ من حيث انتهى أحمد أمين خطواتٍ موفقةٍ قد يكونُ هذا وذاك، ولكن أحمد أمين كان في تاريخ العقلية الإسلامية بكتبه الرائدة يحمل مصباحاً في طريق دامسٍ، أنار كثيراً من جوانبه، ومهّد السير لمن اقتفاه.

وليبلغ أحمد أمين هذا الغرض في فجر الإسلام، قسّم كتابه إلى سبعة أبواب ذات فصول متعددة، كلُّ بابٍ يسلم لتابعه في نسق مطرد، وكلَّ فصلٍ يتدرج في هذه الأبواب يكوّن عضواً متماسكاً مع بقية أعضائه

المتلاصقة في جسم حيٍّ نابضٍ بالدم، متدفق بالحياة.

والفصلُ الأول من الباب الأول يتحدّث عن جزيرة العرب بموقعها وأجزائها ومناخها، وسكانها وأقسامها، وهو فصلٌ تقريري، لا يأتي أيُّ باحثٍ فيه بغير الثابت المدوّن في بطون التاريخ، وهو تمهيدٌ لطيف للفصل الثاني الذي تحدّث فيه المؤلف مُبدعاً عن اتصال العرب بمن جاورهم من الأمم، ووسائل هذا الاتصال، وعن الإمارتين العربيّتين في الشام والعراق، وهما إمارتا الغساسنة والمناذرة، وعن اليهودية والنصرانية، وكلّ ما جاء في هذا الفصل جيّد متماسِكٌ يضيءُ شعاباً كثيرة.

ولكنّ المؤلفَ قد تأثر بكتاب (الشعر الجاهلي) أو بمنْ تأثر بهم صاحب كتاب[1] (الشعر الجاهلي) فسأل نفسه سؤالاً؟ وأجابَ عنه بما يدلُّ على هذا التأثر، أما السؤال، فهو أنّ اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام عمّروا قروناً، وبلغوا من المدنيّة شأواً بعيداً، وكان منهم من يخالِطُ الفرس والروم، ويتكلّم بلغتهم، ودينُهم على العموم كان أرقى على العموم من دين غيرِهم من العرب، وهذا كلّه داعٍ إلى خصب الذهن، وتفتق القريحة بالشعر، وكان من المعقول أن تُخرجَ بلادهم فحولاً من الشعراء، يفتحون في الشعر أبواباً جديدة ومعاني جديدة مع رشاقة في اللفظ تُناسب حضارتهم، ولكنّنا لم نجد ذلك! فما تعليله؟ هذا هو السؤال؟.

أما الإجابة فهي «أنّ هؤلاء الغساسنة والحيريّين كان فيهم شعراء، ولكن كانت لهم لغة خاصة بهم غير لغة قريش التي سادت الحجاز، ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان لبُعد موطنهما، ولأنّ الحيريّين والغسانيّين أرقى ممّن حولهم، فأبوا أن يخضعوا للسان غير لسانهم، وقد يستتبعُ ذلك

---

(١) الدكتور طه حسين وهو الكتاب الذي أثار معركة أدبية كبرى. (الناشر)

أن تكون لهم في الشعر أوزانٌ خاصة، تتفق مع لغتهم فلمّا جاء الإسلام، ونزل القرآنُ بلغة قريش أهمل الرواةُ ما كان خارجاً عن قواعد هذه اللغة وأوزانها».

والذي يهدم هذا الاتجاه من أساسه هو الترحيبُ المطلق الذي وجَدهُ مثل حسّان من الغساسنة ومثل النابغة من المناذرة، إذ لو كان لهذيْن لغة خاصّة غير لغة قريش ما ابتهجوا لما قال الشعراء فيهم من المدائح، ولما أنزلوهُم أحسن المنازل من التقدير والحفاوة، ولما تردّد شعرهم بين السمّار في بلاطي الدولتين.

ثم إنّ لغة قريش إذا كانت مستقلّة عن اللّغات، يُفترض فيها والحال كذلك ألاّ تكون لغة النابغة في ذبيان، ولغة حسان في المدينة، إذ ليس الشاعران قريشيّين حقّاً! مما يدلّ على أنّ العربية التي نزل بها القرآن قد امتدت إلى كلِّ صقعٍ عربي! فافتراضُ لغتيْن غير ما ينطق به أبناء الجزيرة وهمٌ لا حقيقة له، والمناذرة كانوا يغشون القبائل الضاربة في الجزيرة مع جنودهم وأشياعهم، فبأيّ لغة كانوا يتكلّمون مع العرب، والغساسنة كانوا يفتخرون بأمداحهم، ويرسلون إلى كبار الشعراء من يُغريهم بالحضور حتى بذلوا للنابغة ما بذلوا كي يخصّهم وحدهم بأمداحه، وقد استجاب لهم حين ضاق به الأمرُ مع النعمان!.

وقد تساءل أحمد أمين عن الرّقة التي يجب أن تكونَ في بلاط المُترفين؟.

ولو قرأ قصيدة المُنخل اليشكري في (ديوان الحماسة) الذي أشرف على تحقيقه مع الأستاذ عبد السلام هارون لوجد المثل الرائع لهذا الشعر الحضري المنشود؟

وقد ردَّ الناقدون على الدكتور طه حسين رأيه في اختلاف لغة اليمن عن لغة قريش بما لا مزيد عليه[1]، فإذا كان الأستاذ أحمد أمين يرى ما يرى الدكتور طه فلماذا لم يرد على من نقدوه وصححوا أخطاءه! .

الحقّ أن شغف أحمد أمين المفرط بالتعليل لكلِّ ظاهرة يدفعه أحياناً إلى خطأ لا شك فيه، وقد وُجدْت آثارُ المناذرة والغساسنة فما وُجد بها لغة خاصة، وقد ارتاع النعمان بن المنذر حين سمع مدح النابغة في خصمه الغسّاني بقصيدته التي مطلعها:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيءُ الكواكب

وأحسّ ذلك بعضُ ندمائه، فذهبوا إلى النابغة، وأخبروه بتقدير النعمان له، وحنينه إليه، فاستجاب لهم، وقدم مادحاً إيّاه بقصيدة شفت غل صدره، وكان لها دويٌّ بالخَوَرْنَق، أفيكون النابغة حنيئذ يتحدّثُ بغيرِ لغةِ القومِ؟! .

ويلي ذلك حديثٌ قيّم عن طبيعة العقلية العربيّة، حيث عرضَ الأستاذ لثلاثةِ آراء شائعة عن العرب، رأيٌ شعوبيّ، يرى العربَ دُون الأمم جميعها من الأعاجم، فكلها ذات ملوكٍ وفلسفة وصناعات شتى، وليس للعرب قبل الإسلام من ذلك شيءٌ، ورأيٌ يزعم للعرب كلَّ فضيلة مشكورة، ويُنزّههم عن كل رذيلة منكورة، ورأي يرى أنّ العربيَّ متوحش

---

(١) أشهر هذه الردود (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) للسيد محمد الخضر حسين، و(الشهاب الراصد) لمحمد لطفي جمعة، و(نقد كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد فريد وجدي، و(تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعي، و(مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) للدكتور ناصر الدين الأسد. (الناشر)

نهّاب سلاّب، إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب، لا يُجيدُ صناعةً، ولا يحسنُ علماً، وهو رأيُ ابن خلدون ـ للأسف ـ وقريبٌ منه رأي (أوليري) الذي يرى العربيّ جامداً مادياً ضيّقَ الخيال.

وقد نفى الأستاذ رأي الشعوبيين، واستشهد برأي الجاحظ في نقضه، وكان منصفاً حين قال في ردّ المأخذ الثاني: إنّ العربَ شعبٌ ككلِّ الشعوب، له مميزاته، وفيه عيوبه، وكان عليه أن يزيدَ في الردِّ على المأخذ الأول ما ينبئ عن أنَّ الإسلام قد هدى هؤلاء الجفاة فكان ذلك معجزةً له، إذ لو كان العربُ على أوفى نظام في الاجتماع والسياسة ما كان للإسلام رسالةٌ ما.

كما أنّ الشعوبيّين يتحدّثون عن الجاهلية فقط، فيتعارفونها بعهد الحضارة في الأمم الأخرى، وهذا خطأٌ، لأنَّ لكلِّ أمة ـ أية أمة ـ عهداً جاهلياً، فالأصل أن تقابل العهودُ الجاهلية بعضها ببعض، وتقابل عهود الحضارة عن العرب بعهود الحضارة عند غيرها، وهُنا يبزغُ فضل العرب دون نزاع.

أما رأي ابن خلدون فباطلٌ واضحُ البطلان، وكذلك رأيُ من جاراه. لأنّ (ابنَ خلدون) و(أوليري) أخطآ معاً في عدم تحديد المرادُ بالعربيّ لديهم، أهو العربي الجاهلي أم العربي الإسلامي؟ فالقارئ حين يتلو قولَ ابن خلدون: «إنَّ العربي يهدمُ القصورَ ليستعمل حجارتها في الأثافي، وخشب سقفها في الأوتاد»، يظنُّ أن ذلك هو البدويّ الممعن في البداوة[1]، وإذا قرأ أنَّ العربي لا يُحسن اختيار مواقع البلاد يظنّ أن

(١) رأي ابن خلدون هذا في الأعراب لا في العرب عامة، وقد قال ما قال وما فعله الهلاليون في هجرتهم إلى المغرب ماثل في ذهنه. (الناشر)

المقصود هو العربي الذي خطط المدنَ بعد الإسلام، فإذا كان الحديث النقدي خاصّاً بالبدوي قبل الإسلام، (وهذا خطأٌ واضح حاول الأستاذ ردّه) فلماذا لم يقل الأستاذ لهذا الناقد الجريء: أين القصور التي هدمها البدويُّ في الجاهلية وجعلها أداةً للوقود والبناء؟.

إنّ البادية لم تكن ذات قصور حتى يحدث ذلك، ولو وُجدت لأغنتْه عن نصب الخيام، وصُنع الأوتاد من خشب السقوف، فهذا تَجنٍّ لا شك فيه؟.

وأما حضارة العرب في إنشاء المدن بعد الإسلام فلا ينكرها إلا جاحدٌ يجهل عظمة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان، وقد كانت جميعُها أيامَ العزّة العربية أروعَ مثلٍ للازدهار، وما وُجد قبل الإسلام مثل مدينة دمشق فقد ازداد رونقاً وبهاءً، بحيث لا يقاس غابره بحاضره! أجدني الآن أخاطب ابن خلدون بقول الشاعر العربي (الجاهلي):

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على النَّفْسِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

ثم لماذا يكون العربي البدويُّ ماديّاً، لا يعرف المعاني الإنسانية، وقد شهدتْ له صحائف التاريخ بالكرم والإيثار والوفاء والتضحية وحماية الجار، والذود عن الحرمات، والشجاعة، أليست هذه فضائل روحية لا توجد اليوم في أعرق مدن الحضارات، وهل في متمدّني اليوم مَن ينطبق عليه قول القائل:

ويكادُ سيّدُهم يجودُ بنفسِه   حين القِرى حطباً على النيرانِ!

وهو قولٌ إذا كان ذا خيال تصويري، فقد جاء الخيالُ رسماً لفضيلةٍ معنويّةٍ بلغت مبلغها الكبيرِ في إسعافِ الجائعِ وعونِ الفقيرِ.

وقد أعاد أحمد أمين هذا الموضوع في (ضحى الإسلام) على نحوٍ مقاربٍ!.

ويلمّ المؤلِّفُ بعدَ ذلك بفصولٍ طريفةٍ عن حياة العرب في الجاهلية وأثر البيئة العربية في تكوينها، وعن مظاهر الحياة العقلية، ودلالة اللغة العربية بقصصها وأمثالها وشعرِها على عقلية العرب، وكلّ ما قاله الأستاذ في هذا النطاق جيد قويّ.

فإذا انتقلنا من العصر الجاهلي إلى عصر الإسلام، فإنّنا نجد المؤلف قد بلغَ غايةَ التوفيق في أكثر ما كتب، حيث وازن بين الجاهلية والإسلام، وأوضح أثر الإسلام في نهضة العرب، وتحدّثَ عن الفتح الإسلامي وعملية المزج بين الأمم، وألمّ إلماماً شافياً بالحركة العقلية والاجتماعية لدى البلدان المفتوحة، فتحدّثَ عن دين الفُرس بإفاضةٍ، وعن الأدب الفارسي وأثرِه في الأدب العربي وعن التأثير اليوناني والروماني، وعن السبب في تأثر العرب بالأدب الفارسي أكثر من تأثّرهم بالأدب اليوناني، وعن نواحي تأثير اليونان في الأدب العربي، وجاءَ بصائبِ الرأي، ودقيقِ النظر.

وهنا نصلُ إلى أبدع أبواب فجر الإسلام وأقواها، وهو البابُ الخامِسُ الخاصّ بالحركة العلمية في القرن الهجري الأول وما وليه من أبواب.

والحقّ أنّ تاريخ التأليف العلمي المنسق على سنن منطقي لم يشهدْ قبلَ أحمد أمين من أبدع في هذا المجال أقوى الإبداع، إذ كان حديثُه في هذه الأبواب فتحاً جديداً، نبّه الأذهانَ إلى طُرُقٍ في التأليف لم تكنْ معهودةً من قبلُ.

فقد تحدّث الأستاذ في الفصل الأول عن أثر الإسلام في الحركة العلمية، وعن القائمين بها من العرب والموالي، وعن الحركة التاريخية، وموقف الأمويين من كل ذلك.

وتحدّث في الفصل الثاني عن مراكز الحياة العقلية في الحجاز والعراق والشام ومصر، وعن خصائص كل إقليمٍ ومميزاته. وما يوجّه إلى تياره العلمي من نقدٍ؛ تحدّث حديثاً مجملاً ليفصله في الباب السادس حيث أشبعَ القول في الحركة الدينيّة تفصيلاً.

فخصّ الباب الأول بالحديث عن القرآن وتفسيره، واختلاف العرب في فهم معاني القرآن، وأسباب الاختلاف، وعن التفسير ومصادره، وطبقات المفسرين.

وتحدّث في الفصل الثاني عن الحديث وعدم تدوينه، وعن الوضع في الحديث وأسباب الوضع، وأشهر المحدثين، وأثر الحديث في نشر الثقافة، ولم يخلُ بعض ما قاله عن الحديث من نقدٍ تعرّض له الباحثون وكشفوا عن وجهة نظرهم، وقد ألمحت بذلك في فصل تالٍ.

ويجيء الفصل الثالث فيتحدث عن التشريع في الجاهلية، ليكون تمهيداً لما أبدعه الإسلامُ من قانون سماوي، لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، ثم عن الرأي في التشريع، ومعنى الرأي، وتحرّج بعض العلماء عن القول به، وأشهر القائلين بالرأي، وبعض أقوالهم، ومذهب الرأي في العراق ومميزاته، ومذهب الحديث في الحجاز، والنزاع بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وأثر الفتح الإسلامي في التشريع، والقانون الروماني والفقه الإسلامي، وعلاقة الدولة الأموية بالقضاء، وتأثير الأمصار في التشريع.

وكيلا يظن القارئ أني أبالغُ في إعجابي بهذا الباب، أعرضُ عليه كتاباً سابقاً في هذا المجال كتبه الأستاذ الكبير الشيخ (محمد الخضري) وهو أستاذ أحمد أمين، إذ كان تلميذاً له بمدرسة القضاء، ونهل من علمه وفضله، هذا الكتاب هو كتاب (التشريع الإسلامي) وقد كتبه محمد الخضري رحمه الله على غير نهجٍ سابقٍ، إذ كان مبتدع خطته، ووفق إلى جمع خيوطه في براعة أرجو أن يجد ثوابها عند ربِّه! هذا الكتابُ القيم إذا قُورن بما كتبه أحمد أمين في فصولِ التشريع في (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام) يُعدّ فجراً أتى بعده الصبح المُشرق، وإذا كان للخضري رحمه الله فضّل الريادة والسبق، فلأحمد أمين فضل الإتقان والإحكام!.

أما الباب الأخير باب الخلافة وما تفرع بسببها من الأحزاب السياسية كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والمعتزلة. فكلّه جديد في طريقة تناوله، وأقول طريقة التناول، لأنّ آراء الكلاميين ذائعة مشتهرة. ولم يأتِ بها أيُّ مؤرخٍ من عنده، ولكنَّ البراعة كلَّ البراعةِ في تسلسل البحث واطراده وتماسكه، وكلّ ما كتبه أحمد أمين في هذا المجال أصبح المرجعَ الأول لمن تلاه من الباحثين، ولعلّ توفيقه فيما كتبه ـ بعد ـ في الضحى كان أشمل وأوسعَ حيث اتسعت دائرةُ الخلاف بين أهل السنة وخصومهم إلى مدى متطاول، صالت فيه الآراء كالسباع الضارية في حلبات الجدال، وأحمد أمين من وراء هذه الآراء يشرحها ويحلّلها ويحكم عليها بما يراه، وإذا انحاز إلى فريق ما، فبدليله الصارم، ولمخالِفه أن يدحض قولَه، فمجال البحث يتّسع لمعاودة النقاش!.

تخطئة وتصويب:

نعرف أنَّ للمجتهد المُخلص أجرَه، أخطأ أو أصاب، وقد كان أحمد أمين رائداً في حقل الدراسات الإسلامية، فاهتدى إلى صراطٍ مستقيمٍ، سار عليه خالفُوه تابعين، ولا بدّ للرائد من أن يجانبه الصواب في بعض خطواته الواثبة، فيحتاج لمن يناقشه بروح التقدير، مراعياً آداب البحث والجدل.

وهذا لايُعيب البحث في شيءٍ، لأنَّ لكلِّ مؤلفٍ موضعاً للمؤاخذة، ولم يُخل كتاب ما غير كتاب الله من نقدٍ يوجَّه إليه، ولكنّ الأسفَ كل الأسف، حين نرى بعض الناقدين يترك القول ويتحدّثَ عن القائل رامياً إياه بنقائص لا حقيقة لها، وقد يتورط فيزعم أن أحمد أمين عون للاستشراق في نشر أباطيله، وهذا هو الجحودُ بعينه، لأنّ قارئ فجر الإسلام وضحاه وظهره يرى من آراءِ الكاتب الكبير في صدّ هجمات المستشرقين ما يُحمد لصاحبه، وليعلم كل من يتصدى لآراء العلماء الأفاضل من طراز أحمد أمين، أنّ الإسلام عزيزٌ جداً على كل مسلم، وأنّه لا يجوز لأحد ما أن يدّعي أنه أكثر حميّة للإسلام من غيره، فذلك غرور ينكره الإسلام نفسه، فلنترك هذه الطفولة العابثة في النقد، ولنواجه الرأي دون مساس بصاحبه، لا سيما إذا كان من المشهود لهم بالإخلاص العلمي.

لقد كتب أحمد أمين فصولاً جيدة عن الحديث وتدوينه، والوضع وأسبابه، لم تعدمْ النظر المخالف في القليل منها، وقام الكُفاةُ من أهل الحق أمثال محمد أبي زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومصطفى السباعي، بتصويب ما يحتاج إلى تصويب، في لغةٍ بريئة وأدب عفّ.

وقد قرأ أحمد أمين ما كتبوا، وخصّهم بالثناء، لأنَّ الحقيقة بنتُ البحث.

ولكنّ بعض من كتبوا في مذكّراتهم الجامعية التي لا تتجاوز سلّم الكلّية يقولونَ: إنّ أحمد أمين تلميذ المستشرقين، وإنّه يشكّك في جهد المحدثين.

أما أنّه تلميذُ المستشرقين فقارئ كتبه الجليلة يعرفُ كم دحض من شبه لهؤلاء، فهو أستاذهم في مجال الدراسات الأدبيّة والتشريعية دون نزاع.

أما أنّه يشكك في جهد المحدثين، فهذا ما يدحضه قوله الصريح[1]:

«وفي الحق إنّ ثقات المحدثين بذلُوا من الجهد والتمحيص ما لا يوصف، ونحوا في ذلك مناحٍ مختلفة، فاجتهدُوا في وضع رواة الحديث من التابعين ومَنْ بعدَهم في موازين دقيقة بقدر الإمكان، وشرحوا كلّ ما رووا وعرفوا تاريخه وسيرته، ووضعوا في ذلك قواعدَ الجرح والتعديل».

وأقول لهؤلاء الشداة: يا قوم إذا لم تكونوا ذوي علم فكونوا ذوي أخلاق.

وأعرِضُ لبعض ما كانَ موضعَ النقد الصائب من معارضيه، حيث وقفوا كثيراً عند قوله في (فجر الإسلام)[2]: «وقد وضع العلماءُ للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها، ولكنهم والحق يُقال، عنوا بنقد السند أكثر مما عنوا بنقد المتن، فقلَّ أنْ تظفرَ منهم بنقدٍ من ناحية أنَّ ما نُسبَ إلى النبيِّ ﷺ لا يتفق والظروف التي قيلت فيه، أو أنّ الحوادث التاريخية الثابتة تُناقضه، أو أنّ عبارة الحديث أشبه في شروطه وقيوده

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ١٢٩.

(٢) فجر الإسلام، ص٢٦٦.

بمتون الفقه، وهكذا، ولم نظفر منهم في هذا الباب بمعشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم».

وقد قلتُ أنا في الردِّ على ذلك منذ سنواتٍ طوالٍ[1]: وحديثُ الدكتور أحمد أمين عن العناية بالإسناد أكثر من المتن، وجدَ النّقد المقنعَ من رجالِ العلمِ، فمنهم مَنْ بيّن أنَّ العنايةَ بالمتن كانت محلَّ الاعتبار مثل العناية بالسّند سواء بسواء، لأنَّ أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع في السند من اشتهار الرّاوي بالكذب، أو اعترافه مؤخّراً بتعمّد الوضع، أو ادّعائه رؤية شيخ لا تثبت رؤيته لاختلاف الزمان أو المكان، أو انتمائه إلى فرقةٍ مغرضةٍ تخدِمُ أهواءها بالتزيّد والانتحال، نقول: إنّ أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع في الإسناد، ذكروا علامات الوضع في المتن.

كأن يكونَ التعبير في الحديث ركيكاً، لا يُتصوّر صدوره من أفصح البُلغاء.

أو أن يكون المعنى فاسداً يخالِفُ ما تعرفه البدائة الواضحةُ، فلا يجوزُ أن يقولَه نبيٌّ مرسَلٌ كانَ مضربَ المثل في الحكمة والسداد.

أو أنْ يخالِفَ الحديثُ نصاً صريحاً من نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويلَ.

أو يتضمّن أمراً شهيراً من شأنه أن تتوافر الدواعي إلى نقله، ثم لا يرويه إلا شخصٌ واحدٌ.

أو أن يخالفَ الحقائق المشتهرة المعروفة في عصر النبوة.

---

(١) البيان النبوي للدكتور محمد رجب البيومي، ص٢٩.

وكلُّ هذه وأمثالُها علاماتٌ يُعرَفُ بها الحديث الموضوع[1] .

وقد أسهب علماءُ السنة في بسطها، وضرب الأمثلة عليها، مما لاكته الألسنة من الموضوعات، فالقولُ بأنّ الاهتمام بالسند قد تحيّف الاهتمام بالمتن لا ينهض على أساسٍ قويم، وأكبرُ الظنِّ أن الدكتور أحمد أمين وجد الحديث يستفيض عن تاريخ الرواة ومنزلتهم في ميزان الجرح والتعديل، فظنَّ ذلك فريد اهتمامٍ بناحيةٍ دون أخرى، مع أنَّ طبيعةَ البحث في الإسناد تحتم الخوضَ في تاريخ الرجال، فإذا كان لدينا حديثٌ واحد نُقِلَ عن أربعة من الرواة مثلاً، فإنّ الكلام عن كلّ راوٍ منهم يتطلّب بعضَ البسط، فإذا تحدّث علماءُ السند عن أربعتهم جميعاً، فإنّ حديثَهم بلا شك يكونُ أضعاف كلامهم عن الحديث المرويّ، وليس ذلك تحيّفاً للمتن، إذ هو مما يتضح فيه الرأي دون فحصٍ متّصلٍ في الإسناد المتسلسل، هذا وجهُ الحق فيما ردّده المستشرقون، وحكاه الأستاذ أحمد أمين عن إخلاصٍ لم يتحرّ أسبابه تحرّياً دقيقاً.

وفي غير موضوع السند والمتن اتجه نقاشُ الدارسين فيما أخطأ فيه صاحبُ (فجر الإسلام) وأذكر أنّ الدكتور (مصطفى السباعي) كان سبّاقاً إلى مناقشة الأستاذ، منذ عرف سبيل البحث طالباً بكلية الشريعة الإسلامية بمصر. إذ ناقش أحمد أمين على صفحات مجلّتي (الرسالة) و(الفتح) مناقشةً تدلُّ على بصرٍ نافذ، وأمثّل لذلك بما يلي[2] :

١ ـ ألمّ الأستاذ أحمد أمين بحديث الوضّاعين في الحديث، فقال :

---

(١) وقد فصلها الإمام ابن القيّم في كتابه (المنار المنيف). (الناشر)

(٢) تحدثتُ عن ذلك في ترجمتي للدكتور السباعي بكتاب (النهضة الإسلامية) والمناسبة هنا تدعو إلى نقل ما كتبتُ.

وبعضُهم كان سليم النيّة، يجمع كل ما أتاه على أنّه صحيح، فيحدِّثُ بكل ما سمع، فيأخذه الناسُ عنه مخدوعين بصدقه، كالذي قيل في عبد الله بن المبارك إنه ثقةٌ صدوقُ اللسان. ولكنه يأخذ عمن أقبلَ وأدبرَ».

هذا نصّ الأستاذ في (فجر الإسلام)، وقد عارضه الدكتور مصطفى السباعي، فبيّن خطأيْن في هذه العبارة.

الخطأ الأول: أنَّ الوَضّاعَ في الحديث هو من ينسبُ إلى رسول الله ﷺ قولاً لم يقُله وهو يعلم، أمّا سليمُ النيّة فليس من الوُضّاع حتى يتحدّث عنه المؤلف بهذه الصفة.

والخطأ الثاني: أنّه جعلَ ابنَ المبارك من المحدّثين ذوي الغفلة، الذين لا يفرّقون بين الغَثّ والسمين، وابنُ المبارك ليس كذلك، فهو من الأوائل الذين عُنوا بنقد الرجال، ولم يُروَ إلاّ عن الثقات من الشيوخ.

وفي كتب الحديث التي سردها الأستاذ السباعي ما ينطِق بذلك.

أما كيف وقع الأستاذ أحمد أمين في هذا الخطأ، فقد أوضح الناقد الحصيف أنّ ـ أحمد أمين قرأ في (صحيح مسلم) هذا النص «حدثني قهزاد قال: سمعتُ وهباً يقول عن سفيان عن ابن المبارك قال: بقيّةٌ صدوقُ اللسان، ولكنّه يأخذ عمن أقبل وأدبر» فابنُ المبارك يتحدّث عن محدِّثٍ اسمه (بقيةُ بن الوليد الحمصي)، فنسي الأستاذ أحمد أمين كلمة (بقيّة) وظنّ الحكم راجعاً إلى ابن المبارك، فأسند إليه ما هو بريءٌ منه، لأنّ ابنَ المبارك من المحدثين الثقات»[1].

٢ ـ جاء في (فجر الإسلام) ص٢٦٧: أنَّ البُخاريَّ على جليل

---

(١) مجلة (الرسالة) ـ العدد ـ ٣٦٧ ـ ١٥/ ٧/ ١٩٤٠.

قدره، ودقيقِ بحثه، أثبتَ أحاديثَ دلّت الحوادث الزمنية، على أنها غير صحيحة، واستشهد لذلك بحديث «لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة سنة نفس منفوسة».

وقد أورد الدكتور السباعي النّص الّذي رجع إليه أحمد أمين، وهو هذا «صلّى النبيُّ ﷺ صلاة العشاء في آخر حياته فلمّا سلّم، قال: أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنّ رأس مئة لا يبقى ممّن هم اليوم على ظهر الأرض أحدٌ» كما رواه مسلم، يريد الرسول ﷺ أن يقول: إذا مرّتْ مئة عام فلن يبقى أحد ممّن على ظهر الأرض الآن، وهو كلامٌ صحيح، وقد قال الإمام النووي بصدده: هذا الحديث من أعلام النبوة، إذْ أخبر فيه الرسول ﷺ بأنّ كل نفس كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيشُ بعدَها أكثر من مئة سنة، وكان الأمر كذلك، ثم نقل الناقد رواياتٍ أخرى تؤكّد رواية مسلم، ودلَّل فأحسنَ الدليل في بسطٍ شافٍ مستوعب[1].

٣ ـ قال الأستاذ أحمد أمين في (فجر الإسلام)، عن أبي هريرة رضي الله عنه «والحنفيّة يتركون حديثه أحياناً إذا عارضَ القياسَ، كما فعلوا في حديث المصراة».

وقد ردّ الأستاذ السباعي بأنَّ القول بأن الحنفيّة جميعُهم يقدّمون القياسَ على حديث أبي هريرة، لا يخلو من نظر. لأنَّ أبا حنيفة وصاحبيه وجمهور الحنفيّة، على أنَّ الخبرَ مقدّمٌ على القياس مُطلقاً، سواءٌ أكان الراوي فقيهاً أم غير فقيه، ولكنَّ مَن ذهبَ إلى ذلك هو فخر الإسلام وبعضُ تابعيه، ومن هذا يتبيّن أنَّ جمهور الحنفيّة على غير هذا الرأي».

---

(١) مجلة الرسالة ـ العدد ـ ٣٦٨ ـ ٢٢/ ٧/ ١٩٤٠م.

وكعادة الأستاذ السباعي نجدُه يوضّح مأتى الخطأ في قول الأستاذ أحمد أمين، حيث اعتمد على كتاب (مسلّم الثبوت وشرحه) وفهمَ منه ما يدلُّ على أنَّ القولَ راجعٌ إلى الحنفيّة، مع أنَّ النص يوحي بأنه راجع إلى فخر الإسلام[1].

هذا بعض ما احتاج إلى تصويب من كلام الأستاذ أحمد أمين، وإنّ مؤلّفاً كبيراً يكتب ثمانية أجزاء كبار في تاريخ الحياة العقلية في الإسلام مُبتدئاً من تاريخ ظهوره إلى سقوط الدولة العباسية، ومتعرِّضاً لآلاف الآراء، ومئات الشخصيات لا بدَّ أن ينِدَّ عنه ما يمكن أن يحتاج إلى تصويب، ولن يذهبَ ذلك بفضله في كثير أو قليل.

وقد ثار بعض الكتاب على آراء ظهرت في سلسلة فجر الإسلام وضحاه عن المعتزلة والشيعة، ويجب أن نعلم أنَّ المذاهب الإسلامية لا تلتقي في كثير من أحوالها عند رأي واحد، فإذا خولِفَتْ بعضُ الآراء لدى قوم، فهذا من طبيعة البحث العلمي، ومهما كان لكلٍّ فريق بعض جموحه النسبي. فله فضله الجمّ، وعلينا أن ننزع من نفوسِنا عوامل الشطط الداعية إلى نصرة مذهب، وتهجين ما سواه، إلاّ بالجدل الحسن، والحوار المشفق.

أما أن يدعي عالمٌ ما أنّه وحده صاحب الرأي الأصوب، فهذا ما لم يدَّعيه رؤساء المذاهب الكبار من أعلام الأئمة، إذ كلّهم يرى أنّ حكمه صوابٌ يحتمل الخطأ.

* * *

---

(١) مجلة الرسالة ـ العدد ـ ٣٧١ ـ ١٢/ ٨/ ١٩٤٠م.

٢ ـ ضحى الإسلام

ما عسى أن أقولَ ـ والحيِّزُ محدودٌ ـ في ثلاثة أجزاء كبار، يحدّثُ جزؤهـا الأول عن الحيـاة الاجتماعية والثقافـات المختلفـة في العصـر العباسيّ الأول، ويتحدّث جزؤها الثاني عن نشأة العلوم وتطورها في العصر العباسيّ الأول، ويتحدث الجزء الثالث عن الفِرَقِ الدينية من معتزلةٍ وشيعة ومرجئة وخوارج مع الإلمام بتاريخهم السياسي وطابع أدبهم الفنّي.

لقد أراد المؤلف بهذه التسمية الاعتبار الزمني لتدرّج الفكر العلمي من عصرٍ إلى عصر، ولكنّه في الوقت نفسه قد أعطى أكبر مدلولٍ علمي حين تحدّثَ عن الفجر في النشأة العلمية الأولى، وعن الضحى في النشأة العلمية الثانية. وهذا يكفي لإعطاء القارئ صورة كلية لما هو مقبل عليه في تتابع هذه الفصول المزدحمة في ثلاثة أجزاء كبار.

وقد وُفق الأستاذ أكبر توفيق في تحديد الصعوبة الشاقة التي واجهها في تحليل العقلية العربية في الصدر الأول من العصر العباسي، حيث قال وما أبدعَ ما قال:

«لعلَّ أصعبَ ما يُواجه الباحثُ في تاريخ أمّة هو تاريخُ عقلها في نشوئه وارتقائه، وتاريخ دينها وما دَخَلَهُ من آراء ومذاهب، ذلك أنَّ مدارَ البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضحٌ محدودٌ، أما مدار البحث في الفكرة، فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتتْ؟ وكيف نمت؟ وما العواملُ

في إيجادها، وما العناصر التي غذّتها، وما الطوارئ التي طرأت عليها فعدّلتْها وصقلتها، أعياكَ ذلك، وبلغ منك في استخراجه الجهد.

لأنّ الفكرة في أول أمرها لا مظهر لها نستدل به عليها، وقد تتكوّنُ من عناصر لا تخطر على بالٍ، وتعمل في تغييرها وتعديلها عواملُ في منتهى الغموض.

والمذاهبُ الدينية قد يكونُ الباعث عليها غير ما يظهر من تعاليمها، فقد يكون الباعث عليها سياسياً، وهي في مظهرها الخارجيّ مجرّدةً من كل سياسة، وقد يكون الباعث عليها إفسادُ الدين، فتتشكّل بشكل المتحمّس للدين.

وقد يكونُ المذهبُ صالحاً كلَّ الصلاح، ولكن يحكيه أعداؤه فيشوّهونه، ويَلغُونَ فيه فيفسدونه، فيقفُ الباحث حائراً ضالاً، يتطلّبُ بصيصاً من نورٍ يهديه أو أثراً في الطريق سلكه من قبله فيحتذيه، وفوق هذا فالأفكار متنوعة، والآراءُ متعددة، وقضايا كل عصر تُخالف ما قبلها، ويراها الباحثُ فيظنّها لأول وهلة جديدة لم ترتبطْ بما قبلها برباط، ولم تتصل به أية صلة، فيعمل فكره فيما عسى أن يكونَ بينهما من قرابة أو نسب، وما قد يصلُ بينهما من سبب.

هذه عقبات حقيقيّة لا يدركُها إلا باحثٌ خاض غمار المعركة، وعرف جبهاتها الحامية، وأسلحتها الماضية، ووقف أمام كل جبهة مسلّحاً بأدواته الضرورية، ومحاذِراً أن يتنكب السبيل، فيقع صريعاً حيث لا يرحمه أحد، ومن توفيق الله للمؤلف أنّه كان رجل الموقف الحاسم، عرف أبعاده وأطواله، ونازل أبطاله بسلاح لا يفل، فخرجَ من الحومة مكلّلاً بتيجان الفوز.

وهل لي في هذا المجال غير أنْ أشيرَ إلى الخطوط العريضة في هذا البحث المستفيض، فأعلن أنَّ الباب الأول من الجزء الثاني يتحدّث عن أبوابٍ جديدة لم يطرقها باحث عربي قبل أحمد أمين بهذا الإبداع الدقيق، فقد تحدّثَ المؤلفُ عن قضايا غامضة ـ أو كانت غامضةً قبل أن يكشفَ عنها النقاب ـ مثل قضايا الصراع بين العرب والموالي، والعصبية القبليّة. وتنوع أشكال الصراع، وإلى أيّ غاية انتهى.

ثم تحدّث عن الشعوبية، معناها، ومؤداها، وكيف بدأت، وما أثمرت من جهد أدبي، وعنف سياسي...

فإذا انتهى من ذلك في جِدّةٍ وسطوع تحدّث عن الرقيق وأثره في الثقافة، واختلاف أنواع الرقيق، وميزة كل نوع، وثقافة الجواري وأثرهنّ في الآداب والفنون مع مقارنةٍ بين الحرائر والإماء!

أمّا المؤرخ العقلي الذي لم يُغفل مسائل السياسة التي أدّت إلى ظواهر جديدة على المجتمع الإسلامي، فقد كان هو أحمد أمين الذي مزج حديث السياسة بحديث الفكر مزجاً موفقاً حين ألمَّ بحياة اللهو وحياة الجدّ، وقارن بين الأمويّين والعباسيين في الحياتيْن، وأوضح كيف تدرّج اللهو بتدرج العصور، إذ بدأ ضئيلاً في العهد الأول، ثم استشرى في العهود التالية، يتجلى ذلك فيما حكاه عن السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، حيث فاضتْ سيولُ الترف المسرف وتعددتْ مظاهرهُ في القصور، حيث انعكسَ الأمر في الأكواخ البائسة التي لا يجد أصحابها ما يقيهم غوائلَ الحرمان.

وقد كان حديث الزندقة قبل ضحى الإسلام غائماً يحْجبه الضباب فأسفرَ على يد الأستاذ حين حلّل دواعي الزندقة، وبين أسباب انتشارها،

وما ألقت على الفكر من تبعات .

وتتوالى الأبوابَ الدسمة متحدثة عن خصائص الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ورومانية وعربيّة، وقد وقفة المؤلف أمام كل ثقافة من هذه الثقافات وقفة المؤرخ الدقيق أولاً، والفيلسوف المعلّل ثانياً، والمسلم الحرّ ثالثاً، هذا الذي ينتفض غضباً حين يرى مظاهر الفساد تتدافع إلى غير ما حد، ويتساءل كيف حدث هذا، والعصر عصرُ إسلام! والخلفاءُ يجعلون الدين سندهم الأول في الحكم .

وقد اشتهر الأستاذ باطّلاعه الغزير المستوعب لأكثر ما أَلَّف في العصور الإسلامية، فكان هذا الاطلاع حافزاً له على امتداد القول، وعلى صحة الحكم، وقد جعل لكل ثقافة من هذه الثقافات من يمثلها أحسنَ التمثيل، فـ(ابن المقفع) ممثّلٌ للثقافة الفارسية، وله كتبه التي حلّلها المؤلف في اطمئنان، ولم يخترْ ممثلاً للثقافة الهنديّة، لأنّها في العصر العباسي الأوّل قد حُصرت في القصص والحكم وبعض الرياضيات .

أمّا الذي مثل الثقافة اليونانية فهو (حنين بن إسحاق) بترجماته العلمية الكثيرة، وبعمله الطبي البارع .

وكأني بأحمد أمين وقد حار فيمن تختاره ممثلاً للثقافة العربية، ثم رأى أن يكون (المبرد) صاحبُ (الكامل) هو الممثل المختار، فأومأ إلى شذورٍ من حياته، واتجاهه العلمي في التأليف، وهو بذلك يتحدّثُ عن الثقافة العربية الخالصة، لأنّه ادّخر الجاحظَ لموقف آخر، عبَّر عنه بما سمّاه امتزاج الثقافات، حيثُ أشاد بحركة الاطلاع على المعارف الواحدة من كلِّ صوب، وبيّن اختلاف العلماء في الاستقاء من هذه الجداول قوةً وضعفاً، وأثر الإسلام في هذا الامتزاج الثقافي، ثم اختار الجاحظ ممثلاً

لهذه الثقافة المتشعبة، وهذ حق، ولكنّه أضاف إليه (ابنَ قتيبة)، لما رأى من التفاته إلى أقوالٍ أجنبية سجّلها في كتبه.

ولعلّي أجدُ لديّ من الاعتراض ما يدفعني إلى تقرير أنّ ابن قتيبة مهما أكثر من أقوال هؤلاء، فقد كانت روحه بمنأى عما يسطّر، ولم يظهر لذلك أثر في منهجه التأليفي، وآرائه الفكرية.

أما الجاحظ فهو الجاحظ وكفى! وقد استدلّ المؤلف على تأثّر ابن قتيبة بالثقافة الوافدة بما ذكره في (عيون الأخبار) من حديثٍ عن السلطان والحكم، وبما نقل عن الزهد وعن الأطباء والنباتات والحيوان، ولكنّ ذلك كله معارف عامة لم يظهر أثرُها في إبداعِ العالم السني الدقيق.

ونأتي إلى الجزء الثاني وهو في رأيي من أقوى ما كتبَ الأستاذ أحمد أمين في هذه السلسلة المباركة، فقد بدأه بكلمةٍ عن قوانين الرقيّ للعقل البشري بعامة، ليطبّقها على الفكر العربي في صعوده المتوثّب، موضحاً ما انتهى إليه العلم في العصر العباسيّ من رقيّ أفاضَ الأستاذُ في تحليل أسبابه، مبيّناً وجهتي العلوم العقلية والنقلية في التدوين، وموضّحاً مدى حريّة الرأي في هذا العصر، كما رتّب الحديثَ عن معاهد العلم في العصر العباسي؛ كالمكاتب والمساجد ومجالس المناظرة والمكتبات وبيت الحكمة، وهي أمورٌ كانت وقائعها مبعثرةً بين كتب التاريخ والتراجم، فجمع المؤلف شتاتها على نحوٍ ميسر، خاتماً الحديث بأثر المراكز العلمية للحياة العقلية في عواصم الإسلام بالعصر العباسي على نحو ما فعل في (فجر الإسلام) حين تكلّم عن هذه المراكز في العصر الأموي.

ولا أستطيع أن أعبّر عن اعتزازي الهائل بما كتبه الأستاذ عن الحركة العلمية بالتفصيل، حين تكلّم عن الحديث والتفسير على نحوٍ لم يتهيأ من

قبل، دقة إيجاز، وشمول نظرة، وعمق تحليل، متعرّضاً لكتب الأحاديث المشتهرة، وفارقاً بين موقف الأمويين والعباسيين من الحديث، وملماً بأنفس ما يُقال عن الوضع في الحديث، والجرح والتعديل، ورواية الحديث بالمعنى، والخلاف بين المحدّثين والمتكلّمين.

وإذا كان التفسير في أصله الأوّل شعبةً من الحديث، فقد ألحق الأستاذ بالحديث فصلاً عن التفسير، وأفاض فيه على نحو ما صنع بـ(فجر الإسلام) عند الكلام عن مبادئ التفسير من قبل، وألمّ بنفرٍ من العشرين الأولين، خاتماً الحديث بالإمام الطبري، وما قُلتُه عن (الفجر) من نقاش نفر من الكاتبين حول بعض ما قرره الأستاذ، أقوله هنا، مُعلناً أنَّ الجدل المخلص سبيل الأصلاء من الفاقهين.

أمّا باب التشريع، فأخشى أن أسترسلَ في إيضاح مشاعري نحوه، فأُتّهم بالخطابة السطحية، ولكني أحيل إلى جُلّ ما كُتب في تاريخ الفقه في العصر العباسيّ بعدَ ظهور (ضحى الإسلام) ليجد القارئ أثرَ أحمد أمين واضحاً صريحاً، حيث احتذاه الزملاءُ والتلاميذُ معاً. وإذا كان المؤلِّف قد درس التشريع الإسلاميَّ دراسةً موسّعةً في مدرسة القضاء حتى صار فقيهاً قاضياً قبل أن يكونَ مؤرّخاً علمياً، فإنّ هذه الدراسة قد هيأت له ما لم يتهيأ لسواه حين أفاض في مسائل الاجتهاد والقياس والحيل الشرعية، وحين قارن بين مدرستي أبي حنيفة ومالك قفّى ذلك بحديثه الجيد عن أثر الشافعي في الفقه الإسلامي بما لا مزيد عليه، وأقول لا مزيد عليه عن وعْي صادق، إذ ليست المسألة مسألة كمٍّ عددي دُون محصول دسمٍ، وإنّما هي مسألةُ نظرٍ دقيقٍ فاحص، يبلغُ بالنظرة المتئدة ما لا تبلغه عشراتُ النظرات المتعجّلة، وأترك القول للأستاذ عبد الوهاب حمودة

زميل الأستاذ بكلية الآداب حيث يقول بهذا الصدد[1]:

«أما في الفصل الرابع والخامس (من ضحى الإسلام جـ ٢) فقد تكلّم الأستاذ عن الحديث والتفسير والتشريع، ومنْ أجدرُ من الأستاذ أحمد أمين بتوفية هذه البحوث، والقيام بواجب تحقيق هذه المسائل، وهو ابن بجدتها، وأبو عُذرتها، ولا يُرضيني في الكشف عن محاسن هذين الفصلين إلاّ أنْ أشير على القارئ بقراءتهما، وأرغبُ إليه في دراستهما، حتى يتذوّقَ جمال حقائقهما بنفسه، ويقف على بديع تنسيقهما بدرسه، إذ هما يقعان فيما يقربُ من مئة وخمسين صفحة من الكتاب، والكتاب كله في ثلاثمئة وخمسين صفحة، فجزى الله الأستاذ عن الحديث والقرآن خير الجزاء».

وجاء الفصل السادس خاصّاً بالأدب في صميمه، وباللغة في أصولها، فقد بحث الأستاذ علومَ الأدب بحثاً هادئاً عميقاً، واهتدى إلى حقائق لم يسقها في ثرثرةٍ صاخبة كما نعهد لدى من يحاولون تضخيم أنفسهم، إذ يحسبون أنهم على شيء، والكمال الخلقي إذا صاحب البحث العلمي فقد أينع الثمر، وطاب جناه.

وفي الختام جاءَ فصْل التاريخ والمؤرخين وهو فصلٌ يتحدّث فيه زميلٌ لاحق عن زملاء سابقين، وقد قاسمهم العطف، ومنحهم النقد الهادف في تقدير جم، ووقوف عند الملابسات والظروف، وإذا أبدى ما يشم منه رائحة التخطئة، فإنّه يشبعه بما يخفف وقعه، كما فعل مع ابن إسحاق حين اعتذر عنه لما جمع من شعر موضوع لم تثبت صحة روايته تاركاً جانب النقد لعلماء الأدب، وليس منهم!.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثالثة: / ١٩٣٥.

وأنتقل إلى الجزء الثالث من (الضحى) وقد قرأتُه في صدر شبابي عدة مرات، لظروف أشترك فيها مع غيري من الزملاء، إذ كنّا قد قرأنا مسائل علم الكلام في كتب العصر المملوكي، التي كانت تدرّس بالأزهر، وفي كُتب ما قبل هذا العصر مما كتبه علماء المشرق من الأعاجم، فخاضُوا في صفات الله مخاضاً مزجُوه بالفلسفة والمنطق، حتى تحوّلت قضايا علم الكلام إلى ما يشبه الألغاز، وكنّا حين يستغلقُ علينا وجهُ الرأي نحفظ الموضوع دون أن نصل إلى خباياه حفظاً يؤهل إلى النجاح في الامتحان فحسب، وازدادت الحيرة حين نُسأل عن فحوى هذه الكتب فلا نستطيع الجواب.

ولولا (رسالة التوحيد) التي كتبها الأستاذ الإمام محمد عبده ما كنا عرفنا شيئاً صحيحاً عن علم الكلام بالمرة، ثم هدانا الله إلى ما كتب (أحمد أمين) في الجزء الثالث من (ضحى الإسلام) فوجدنا مسائل علم الكلام قد أصبحتْ من السهولة وكأنّها مسائل علم الفقه، لم يستغلق علينا شيء من معضلاتها، وقد كابدَ المؤلفُ كثيراً في تذليل الآراء، وتيسيرها، كما عانى الأكثرَ في مناقشتها، إذا اضطر إلى مخالفة بعض السائد المتعارف لدى الجمهور، وليس في ذلك شيءٌ، ما دام يملك دليل المخالفة، ورُبَّ رأي مهجورٍ كان أولى من ذائع مشتهر، ولعلَّ صاحبَ (ضحى الإسلام) قد أفصحَ عن معاناته الشديدة حين قال في المقدمة:

«وقد لقيتُ في هذا الجزء من العناء ما لم ألقه في غيره من الأجزاء، لأنَّ العقائد الدينية قد عملت فيها الأهواء أكثر مما عملت في غيرها من مناحي الحياة، فتحريرُ المذهب كما يتصوره أصحابُه في غاية الصعوبة، والخطوطُ المرسومة في تحديده في كثيرٍ من الأحيان غامضة ملتوية،

وحسبُك مثلاً على هذا ما نراه في مذهب المعتزلة، فقد أبيدتْ كُتبهم، وعدا خصومهم على آثارهم، فإذا أردْنا معرفةَ آرائهم لم نرها محكيّةً إلا في كتب أعدائهم، وهؤلاء في كثير من الأحيان لا يدلُون بحججهم في قوة كالتي يُدلى بها أصحابها، فهم يُضعفون الدليل، ويُقوُّون الرد.

ثم إنَّ آراء الفرق في كتب الفرق مشوشة مبعثرة، قلَّ أن تربطها وحدةٌ، وقلَّ أن يُعنى فيها بوضع الفروع بعد أصولها، فكنتُ إذا أحببتُ أن أترجم لعلم من أعلام الفرق كـ(النظام) أو (العلّاف) لم أر ذلك مجموعاً في موضع، ولا مرتّباً في مكان، فأضطر إلى جمع رأي من هنا ورأي من هناك، فإذا تمّ لي ذلك حاولت أن أؤلف منها شكلاً منظماً. فكنت أنجحُ حيناً، وأفشل حيناً، هذا إلى فوضى هذه الكتب في عرض المذاهب، وغموض التعبير، ومزج القشور باللباب».

وبعد حديث الاعتزال جاء حديث الشيعة والمرجئة والخوارج، وما يقالُ عن آرائهم المبعثرة في كتب الخصوم مثل ما يُقال عن آراء المعتزلة، فلله أي جهد بذل هذا الباحث الضليع!.

وإنّ كتاب (ضحى الإسلام) بأجزائه الثلاثة من أنفس ما كتبَ الأستاذ أحمد أمين، وهو من ذخائر الفكر الإسلامي دونَ نزاع.

* * *

٣ ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث

اشتُهر هذا الكتاب اشتهاراً ذائعاً، لأنّه قُرر على طلاب المدارس عِدّة سنوات، فكثرت طبعاتُه، وتداولتها الأيدي على نطاقٍ واسع، وكان ذلك من حظّ القارئ قبل أن يكونَ من حظِّ المؤلف، لأنّ ما تضمنه الكتاب من نظرات سياسية وتاريخية ودينيّة سِيقَتْ مساقاً عذباً مطرداً، قد جعله كتاب تربية وتعليم، يرسم المثل، ويُحدّدُ النهجَ، قبل أن يكون تاريخاً لزعماء الإصلاح، وقد حدّدَ المؤلف هدفه في المقدمة القصيرة التي صدّر بها الكتاب إذ قال فيها[1]:

«وقد رجوتُ منه أن يكونَ فيما يُصوِّر من حياة المصلحين ونوع إصلاحهم باعثاً للشباب، تستثير هممهم، فيحتذون حذْو أولئك المصلحين، ويهتدون بهديهم، وينهضون بأممهم، والله يوفقهم».

وتأكيداً لهذا الهدف نذكر أنَّ العلل المستعصية التي قابلها هؤلاء الزعماء، لم تبرأ بعدُ على الوجه الصحيح، وأنّ الأمة الإسلامية لا تزال تُعاني من أدوائها ما يُؤرّق المضجع، ويثير الشجون، والشبابُ المتطلّع إلى العزّ يلمس هذه الأدواء، ويقف أمامها في أسف، فإذا قرأ ما قام به المصلحون في تذليل الصعاب، وتهيئة العلاج، وما بذلوه من جهدٍ جاهدٍ

---

(١) زعماء الإصلاح، ص٢.

سيطر على عوامل الخذلان، فإنّ الشباب سيتخذون منهم القدوة، وسيتشرّبون نظريّاتهم التوجيهية، ويعملون على استكمال الحلقات التي لم تزل بعد في حاجةٍ إلى استكمال، وأسلوب الكتاب في وضوحه السافر، وفي عاطفته الصادقة المتوجّهة نحو الإصلاح، يجذبُ قارئه مستمتعاً بسطوره، وكأنّه يقرأ عن كلٍّ زعيم قصّةً لا ترجمةً، وإذا أفلح المؤلف في جذب قارئه ـ ولاسيما الطالب الناشئ ـ إلى موضوعه فقد بلغ كثيراً مما أراد.

وبعد المقدمة فصلٌ جيد، أبدع الكاتبُ فيه إبداعاً حسناً، حين لخّص حياة العالم الإسلامي في طوري ارتقائه وصعوده، وانحداره وهبوطه، مبيّناً دوافع الارتقاء السالف، وعوامل الهبوط الحاضر، وكأنّه بما كتب عن عزّة الماضي وعظمته يقول لِمنْ يأسون على مرارة الحاضر: ليس أمر النهوض مستحيلاً، فقد نهض الأجداد بدينهم ومبادئهم حتى أصبحوا سادة العالم، ثم تراخى الأبناء عن السعي الناهض في طريق الأجداد، فانتهى الأمر إلى خذلانٍ لا منجاة منه إلا بسلوك جديد، يعتصم بتقاليد السّلف، ويستمسك بمبادئ الدين، فإذا بدأنا السير في هذا السبيل فقد عرفنا الاتجاه الصحيح، وهو سبيلٌ محفوفٌ بالمكاره، لأنّ محاربة الفساد الضارب بجذوره إلى أبعد الأغوار ليست من اليسر بحيث يستطيعها غير المكافح الدؤوب، فكمْ لاقى هؤلاء الزعماء من عقبات. وكم كابدوا من عنت الحاسدين، وخبث المناوئين، حتى بلغوا قدر ما يستطيعون من التوفيق.

وكم كان الدكتور أحمد أمين صادقاً حين تحدّث عن نضال هؤلاء فقال عن هؤلاء الأبطال[1]:

---

(١) زعماء الإصلاح، ص٩.

«وكلٌّ قد أبلى بلاءً حسناً، ولاقى من العناء ما لا يتحمّله إلا أولو العزم، فمنهم من شُرّد، ومنهم من قُتل، ومنهمْ من رُمي بالخيانة العظمى، فمن نادى بالمساواة في العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتُّهم بمحاربة المسلمين، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتُّهم بالتفرنج والخروج على التقاليد، ومن نادى بتأسيس مجلس للشورى، اتُّهم بمحاربة السلطان، والحضّ على الثورة، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع إلى أصل الدين اتُّهم بالإلحاد، وهكذا! وهُم على هذا صابرون مجاهدون، أحبّوا مبدأهم في الإصلاح أكثر مما أحبوا الحياة، ولم يعبئوا بالتعذيب يحيقُ بهم في سبيل تحقيق فكرتهم، وظلّتْ آراؤهم تعملُ عملها في حياتهم وبعد موتهم، حتى تحقّق إصلاحهم، وتقدّم الشرق على أيديهم خطواتٍ تستحقُّ الإعجاب».

والأستاذُ في حديثه عن زعماء الإصلاح ينحّي التفصيلات الهامشيّة التي لا تفيد القارئ فائدةً ثمينةً، فهو قد قرأ كلّ ما تعلّق بالزعيم قراءةً مستوفاة، وأخذ من قراءته ما أظهرهُ أمام عينه واضح الملامح، ساطع القسمات، ثم اتّجه إلى رسالته الإصلاحية لتكون وحدها مدار الحديث عنه، وإذا أُحطيت بشيء آخر فهو مما يكمّل حديث الإصلاح، لأنّه لا يكتب عن كل زعيم كتاباً مستقلاً فيتّسع المجال لتصوير أدوار حياته، ولكنّه يهدف إلى مناحي الإصلاح في رسالته التي نهض بها، فهي الهدف الأول من تسطير كتابه.

وقارئ كتابه حين ينتهي من قراءة فصلٍ من فصوله يظلّ مشوقاً متلهفاً إلى تتبّع آثار المتحدث عنه، وذلك كسبٌ تربويّ لا خلافَ في جدواه، كما أنّ اختلاف مناحي الإصلاح باختلاف الشخصيات المتحدّث عنها،

يُعطي القارئ صوراً شتّى لضُروبٍ من المفاسد، قد تجسّمتْ وتعدّدت، ولم يستطع معولٌ واحدٌ أن يقوم باستئصالها، فتعدّدت المعاول بتعدّد المصلحين.

وقد كان التسلسل الزمني في تتابع هؤلاء المصلحين سبيل الترتيب التأليفي في الحديث عنهم، إذ بدأ بالأقدم، ثم من وليه وفي هذا الترتيب، ما يُعين على تتبّع حلقات الإصلاح في سلسلته الممتدة، وما يُهيئ السبيل إلى مقارنةٍ بين السابق واللاحق حيناً، وبين أثر السابق في اللاحق حيناً آخر، وقد يجتمع زعيمان معاً في زمن واحد فيكون السّبق في الوفاة أساس السبق في الحديث، إذ لا شك في أن الخالف سيكمّل بعض ما تركه السابق، لذلك كان الكتاب على دسامته التاريخية. . . وفائدته التوجيهية أشبه بقصّة ذات فصول متتابعة! والفصل الأخير منها يصلح لأن يكونَ ابتداءً لقصة جديدة يكتبها مؤلّف جديد، لأنّ فصول الإصلاح ممتدة المشاهد، متعدّدة الأدوار.

وأول مصلحٍ تحدّث عنه المؤلف هو الشيخ (**محمد بن عبد الوهاب**) ومركز الحديث عن رسالته الإصلاحية هو ما قام به من دعوةٍ إلى التوحيد الخالص، ومهاجمته عوامل الانحراف في العقيدة السليمة، ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد في الأحكام الشرعية التي تتجدّد بتجدد الزمن، وما وجده من مناوأةٍ في سبيل تحقيق منهجه لم تمنعه عن السير في طريق الإصلاح.

وكعادة الأستاذ أحمد أمين في كلّ ما ألّف من دراسات، لم يُخل المتحدث عنه من وجه للنقد إذ رأى الأستاذ (أحمد أمين) أن المصلح الكبير مع جهاده الحافل المثمر قد وقف في دعوته عند تصحيح العقيدة

وحدها، ولم يلتفت إلى ضرورة الانتفاع بآثار المدنيّة العلمية التي نهضت بها أوروبة، وتخلّف الشرق، ولعلي أرى أنّ الجبهة الواحدة تضمن النجاح الأكيد إذا ركّز المجاهد جهده في ميدانها، أما تعدد الجبهات فقد يشتت الجهود، ولهذا كان لكل زعيم ميدانه الخاصة في أكثر الأحوال.

وبعد حديث محمد بن عبد الوهاب جاء حديث (**مِدْحتْ باشا**) المصلح التركي العظيم، وقد وفّاه الأستاذ حقه من البيان فصادف ذلك تقدير القارئ العربي... لأنّه لم يكن يعلم عن المصلح العظيم شيئاً ما، إذ لم يلتفت إليه كاتبو الإصلاح المعاصر، لأن الحركة الكمالية قد شوّهت كلَّ من قام بالإصلاح قبل سقوط الخلافة، حتى من ناوءوا الخلافة لم يحفلوا بجهاده. إذ إنّ همّ كلّ منتصرٍ جديد في المضمار السياسي أن يُعلن أنّه أنقذ الأمة من العدم، وأنها كانت قبله لا شيء! وله ذيوله من المرتزقة يفهمون ما في نفسه، فيكتبون التاريخ كما يشتهي.

وأول مأخذ يوجّه للأستاذ أحمد أمين أن كتب عن عبد الحميد مستمداً أفكاره مما كتبه خصومه بعد عزله، وهؤلاء لم يرعوا حق التاريخ في إثبات الحق، وتزييف الباطل، ونحن لا نعلن أنَّ السلطان كان مبرأً من المآخذ، ولكن يسوءنا أن تضخّم مثالبُه ويُختلق بعضها اختلاقاً، ثم لا تُذكر له حسنةٌ واحدة! حتى موقفه من اليهود حين رفض مقامهم في فلسطين تناسوه فلم يذكروه، مع أنّه كان أحد وسائل سقوطه، إذ تألبت الصهيونية عليه بدعاياتها المسمومة حتى تم لها ما أرادت! وقد أحسن أحمد أمين تلخيص آراء مدحت، وخطواته الإصلاحية حين قال عنه[1]:

«قضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعي، يختار من

---

(١) زعماء الإصلاح، ص٥٧.

المدنية الحديثة أحسن ما وصلت إليه في تنظيم الحكم، على أساس الشورى التي تتفق وتعاليم الإسلام، ويأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية في البلاد، ويُراعي في ذلك مستوى الأمة وقدرتها على الامتصاص، ويلتذّ من العذاب ما يصيبه في هذا السبيل، لأنّه ربط الإصلاح بعقيدته الدينيّة، ومن أجل ذلك كان هادئاً مطمئناً مستبشراً حتى وهو في منفاه».

والقولُ في (**جمال الدين**) ـ وقد تلا مدحت باشا ـ فسيحٌ متشعب، والقارئ يعرف الكثير عن جمال الدين الأفغاني، وقد أحسن الأستاذ أحمد أمين تلخيص أهداف السيد جمال الدين الأفغاني حين قال عنه[١]:

«أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينيّاً واجتماعياً وسياسياً، وإذا كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية والسياسية كانت دعوة السيد شاملة للمناحي الثلاثة، وكان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي، فيرى أنهم كانوا موحّدين حقاً، مُعْتزين بدينهم، لا تفرقهم المذاهب والنّحل، مترابطين برباط الأخوة، يبذلون أعزّ شيء في سبيل عقيدتهم وعزهم، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم دخل الفساد عليهم من خمسة أبواب، من عقيدة الجبر، والخطأ في فهم القضاء والقدر، حتى صُرفت النفوس عن الجد في الأعمال، وممّا أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع، فجعلوا المسلمين شيعاً وأحزاباً، وأضعفوا قوّة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة، وممّا أحدثه السوفسطائية من أفكار، ومما عمله كذبة

---

(١) زعماء الإصلاح، ص٨٣.

المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله ﷺ، وفيها السمّ القاتل، لروح العمل والإباء، ومن ضعف التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم، ونشر العلم بينهم، ثم زاد أسباباً أخرى أهمها تفكّك الروابط بين أجزاء الأمة، وترك الدعوة إلى الثورة والجهاد».

وقد كان (خير الدين التونسي) كمدحت باشا مجهولاً لدى القارئ العربي في غير تونس! وله إصلاحاتٌ سياسية ودينية واجتماعية تستأهل الإيضاح، كما أصدرَ مؤلّفاً قيّماً يرسمُ خطة إصلاحية، ويضع المنهج الذي ينوي أن يسير عليه، ومثلُه لا يُجهل بين زعماء النهضة المعاصرة، لذلك خصه أحمد أمين بدراسته.

وخير الدين غُلامٌ شركسي خُطِف في غفلةٍ من أهله، وبيع في السوق عبداً، ولكنّه اتصل بقصر الحاكم بعد أن بيع ثانيةً إليه! وقد رأى ملامح النجابة في كلّ ما يبدو منه، فاهتمّ بتثقيفه وتربيته، وحقّقت الأيام ظنه، فأبدى نبوغاً أدهش مدرّسيه، ولم يقتصرْ على التعليم الديني، إذ التحق بالجيش، وتنقّل من رتبة إلى رتبة، حتى صار أميراً للواء الخيالة، وزادت ثقة الناس به، فجعله سفيراً يتحدّث عنه في أخصّ أموره، وزار باريس، وشاهد من تقدمها الحضاري ما رسم في ذهنه صورةً لحياة أفضل، وحين رجعَ صار وزيراً للحربيّة، فبدأ بإصلاحات كثيرة لم يعهدها أحد لدى سابقيه، وأهمّها سعيُه لإنشاء مجلس شورى منتخب، وقد عارضه الكثيرون ممن لم يسمعوا عن هذا النظام النيابي، وعدّوه خارجاً عن الشريعة، لأنّ بعض القوانين التي أقرها لا ترجعُ إليها.

وخير الدين رجلٌ درس الشريعة في صغره، وعرف من أمور الدين ما يعرف علماؤه، فناظر وعارض، حتى اكتسب أنصاراً، ثم تدخل المحتل الفرنسي في أعمال المجلس، وأراد أن يخضعه لسيطرته، فوجد من

خير الدين معارِضاً صارماً، فأرغمه على الاستقالة، وكانت فرصةً طيبة لعُزلة هادئـة راجع فيها خير الدين سجلّ حياته، وآماله في تقدّم وطنـه، وجمع خواطره وقراءاته السياسـية والاجتماعية في كتـابٍ سمّاه (أقـوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) وقد تأثّر فيه بابن خلدون، إذ افتتحه بمقدّمة يتحدّث عن حال العصر وشؤون العمران، ثم شرح العلل المزمنة التي هوت بالمسلمين إلى وهدة التخلف، وقد أحسن الدكتور أحمد أمين في تقديم زبدة فكر خير الدين في سطور ملخصة من المقدمة قال فيها[١] :

«إنّ أهـمّ مـا يعنينـا الآن مقـدمتـه التـي تشـرحُ حـالَ المسلميـن، وحاجتهم إلى الإصلاح، وهو فيها ينعى على المسلمين كراهيتهم الأخذ بأساليب المدنية الغربية في الإصلاح، واعتقادهم أنّ كل ما صدر عن أوروبـة حرام، ويعلّلون ذلك بعلل مختلفة. كأن يقولوا: إنّها مخالفـة للشريعة الإسلامية، أو يقولوا: إنها إذا ناسبت الأمم الغربية، فلن تناسب الأمم الشرقية، لأنّ لكلّ أمة موقعها التاريخي وعقليتها، أو أنْ يقولوا: إنّ المدنيـة الغربية بطيئـة الإجراءات، وخاصّـة في طريق القضاء، أو أن يقولوا: إن النظم الغربية تستلزم التوسّع في الإدارة، وتقسيم الأعمال، وهذا يستلزم كثرة الموظفين، وليس لنا مالٌ يكفي لكلٍّ ذلك، فلا بدّ إذن من فرض ضرائب جديدة، والبلاد فقيرة لا تحتمل زيادة الضرائب».

وهذه مزاعم فنّدها خير الدين، ولخّصها أحمد أمين دون إخلال، ثم أتيح له أن يتبوأ مقعد الحكم، فقام بإصلاحات هي الأولى من نوعها في تونـس، وتآمر عليـه من حقدوا، وغالوا في الدسيسة، ولكنّه رسـم قواعد الإصلاح، وحقق منها الكثير، وكان المؤلف صادقاً حين قال عنه

---

(١) زعماء الإصلاح، ص١٥٩.

في خاتمة حديثه[1] : «كانتْ فضائله التي تكوّن شخصيته هي الجرأة في الحق، وعمله من غير خوف، وصلابته فيما يعتقده من غير انحناء، وحريته في تفكيره من غير جمود، وقوة كاهله على حمل الأعباء».

وننتقل إلى (**علي مبارك**) وقد أحسن الأستاذ ترجمته، وإيضاح مناحي إصلاحاته المتعدّدة، وكأنّي بالمؤلف وقد ارتاح لعلي مبارك لمشابة به يلمسها في نفسه، فالرجلُ عالم مفضال، صبور على البحث والتنقيب، وله كتب شتى، بعضها أصبح مرجعاً أساسيّاً لتاريخ مصر، وذلك كلُّه يحبّبه إلى نفس الكاتب، إذْ يسيرُ معه في اتجاهه.

ثم إنّ علي مبارك يبتعدُ عن السياسة ولا يزاولها إلا مضطراً، وكأنه أجبر إجباراً، وهكذا أحمد أمين، وقد سجّل تجاربه العلمية والعملية في بعض ما كتب، وكذلك صنع أحمد أمين تماماً، لذلك لم أستبعد هذا العطف الذي تلوح سطوره في كل ما كتب الأستاذ عنه، وإخاله أحسن تعليل عدم اشتراكه في الثورة العرابية حين ردّه إلى مزاج نفسي ينأى به عن الصراع، وهو الواقعُ فعلاً.

ومع محبته إياه فلم يبالغ في تقدير نتائج أعماله، حيث قال في إخلاص[2] :

«لم تكن خُطط علي مبارك في التعليم هي المثل الأعلى، ولا كانت خالية من العيوب، ولكنّها كانت خطوةً مباركةً، صالحةً لأن ترقى مع الزمان، ويصلح ما ظهر فيها عند التنفيذ من أخطاء» وأنا أقول: إنّ كلّ مصلح شأنه في ذلك شأنُ علي مبارك، لأنّ أحداً من المصلحين كائناً

---

(١) زعماء الإصلاح، ص١٨٣ .
(٢) المرجع السابق، ص١٩٩ .

ما كان لا تكونُ خطته هي المثل الأعلى، ولا تكونُ خالية من العيوب، ويكفي أنه أصلح أموراً كثيرة في وزارات الأشغال والحربيّة.

أمّا إصلاحاته التعليمية فقد جاوزتْ كلَّ أمل في عصره، إذ أكثر من المدارس والكتاتيب، وأنشأ دار العلوم، وأوجد لأول مرة قاعةً للمحاضرات، وداراً للكتب، ومجلة أدبية خاصة بالمعرفة الإنسانية والنتاج الأدبي! فصار بذلك رائداً أي رائد!.

ويحسّ القارئ بفيض من الحب الشديد في حديث أحمد أمين عن **(الكواكبي)** و**(محمد عبده)**، ويخيّل إليّ أنّ الكاتب الكبير قد رأى فيهما مثلاً ينشده ويحتذيه، فقد قال عن **(عبد الرحمن الكواكبي)** وكأنّه يتحدث عن نفسه كما وصفه عارفوه:

قال أحمد أمين عن الكواكبي: كان مثالاً نادراً في الرجال، مؤدب اللسان: «فلا تُؤخذُ عليه هفوة، يزنُ الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً، حتى لو أُلْقي عليه السلام لفكر في الإجابة، متزنٌ في حديثه، إذا قاطعه أحدٌ سكت وانتظر حتى يتمّ حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، فيؤدِّبُ بذلك مُحدّثه، نزيهُ النفس، لا يخدعه مطمع، ولا يُغريه منصب، شجاعٌ فيما يقول ويفعل مهما جرّتْ عليه شجاعته من سجن وضياع مالٍ، وتشريدٍ، وهو على أنفته وعزته وصلفه على الكبراء، متواضعٌ للبائسين والفقراء، يقف دائماً بجانب الضعفاء، يشعُّ على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ وحب الحق، ونصرة المبدأ، والتضحية للفضيلة».

لقد نقلتُ هذا النص في مناسبة تدعوه من قبل، وقلتُ في التعليق عليه[1]: وكأني بالدكتور أحمد أمين وقد اهتمّ بهذا الأنموذج النفسي

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: ١/ ٣٤، ط دار القلم.

الرائع، ليجعله قدوةً للقارئ، وأيّ قدوةٍ في العصر أفضلُ من صاحب هذا المسلك النزيه، هذا ما قلتهُ من قبل، أمّا ما لم أقله فهو أنّ كتابات أحمد أمين في مقالاتـه الكثيرة ذات النزعـة الإصلاحية تدعـو إلى كلّ ما ذكره الكاتب الكبير عن الكواكبي، فقد تحدّث كثيراً عن عفة اللسـان، وأدب الحوار، وأخَذَ على المتناظرين شغفهم بالتهجّم والغرور، كما كان أثناء حديثـه في مجالسه الرسمية والأخوية يزنُ الكلمةَ قبل أن ينطقَ بها وزنـاً دقيقاً، متّزناً في حديثه حتى إذا قاطعه أحدٌ سكت، وانتظر حتى يتمَّ حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه ليؤدّبَ بذلك محدثه.

أذكـر عن أحمد أمين قصّـةً رواها عن نفسـه، دون أن يذكر اسـم المتحدَّث عنه، ورواها بعض أصدقائه ذاكراً اسم المعنيّ بالحديث، فقد كان أحمد أمين عضواً بمجلس الجامعة، وقد عُرِضَ أمرٌ اقتضى علي ماهر باشا وهو رئيس وزراء سابق أن يفيض في شأنه بغير ما يُرضي أحمد أمين، فاضطرّ إلى أن يردُّ عليه أثناء حديثه، فقاطعه علي ماهر محتداً، وقال فيما يشبه الكبرياء: لا تقاطعني وانتظر، فسكت أحمد أمين حتى انتهى الباشا من قوله، وأخذ يردُّ عليه، فانطلق الرجل يقاطعه، وهنا صاح أحمد أمين صيحة زميله من قبل: لا تقاطعني وانتظر، فسكت الباشا ليستمع، وأدبُ الحديث مما يحتاج الكُتّاب إلى معاودة تقريره، لأن بلاء الناس جميعاً قد جاء كثير منه صدى للاحتدام في المناقشة.

وقد عرفت من تعمّد الكيد لزميل له، لأنه قاطعه في حديث عام وصادف من المجلس قبولاً لرأيه، فعدّ ذلك انهزاماً، بل عدّه جرماً يتطلّب العقاب.

وقد أفاض أحمد أمين في تحليل كتابي الكواكبي (طبائع الاستبداد)

و(أم القرى) بما يدل على أنّه استبطنَ الكتابين استبطاناً كان بالغ الصدى في نفسه، وكلام الكواكبي في حينه قد كان شيئاً جديداً، لا يُسمع إلا من أناس يعدّون على الأصابع مثل (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) فكان يُقابَلُ بالاستغراب عند الجمهرة القارئة التي ألفت الطاعة والامتثال، وفهمت فهماً مخطئاً المراد من قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩]، ففسّرت طاعة وليّ الأمر على أنّها الطاعة العمياء، ولو واصلت قراءة الآية الكريمة لفطنت إلى قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد سطّر الكواكبي كتابه ليُعلن أنّ الإسلامَ يُحارِبُ الاستبداد، فهو مبنيٌّ على قواعد كريمة من الحرية السياسية، وهو مؤسّسٌ على أصولٍ ديمقراطية، تقتضي المراعاة التامة للمصلحة العامة، وعلى شورى أرستقراطية، أو شورى الخواص، وهم أهل الحل والعقد، إذ القرآن مليءٌ بما يسحق الاستبداد، ويدعو إلى العدل، والخضوع إلى نظام الشورى، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٨]، حتى في القصص من نحو قول الله تعالى: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢].

ثم إنّ الإسلام لا يعرفُ سلطةً دينية، ولا اعترافاً، ولا بيع غفران، ولامنزلةً خاصة لرجال الدين، ولكن دخل عليه من الفساد الزائف ما دخل على كلِّ دين فتفرقت كلمة المسلمين».

وفي الختام جاءت سيرة (محمد عبده) بقلم أحمد أمين، وأقول في الختام عالماً أنّ حديث محمد عبده في أكثر آثار أحمد أمين لم ينقطع، لأنّ

الكاتب الكبير مُغرى بالإصلاح، وقد شاهد من المفاسد ما نهض الأستاذ الإمام لمحاربته، فكان يستشهدُ به مكبراً قوله وفعله.

ومن سعادة الأستاذ الإمام أنه رُزق تلاميذ كأحمد أمين لم يزالوا يلهجون به حتى لفظوا أنفاسهم، من أمثال: (محمد رشيد رضا) و(مصطفى عبد الرزاق) و(محمد مصطفى المراغي) و(عبد العزيز جاويش) و(عبد الوهاب النجار) وكلّهم علمٌ في بابه.

وقد استطاع أحمد أمين أن يلخص بمقدرة فائقة جهاد الإمام فيما كتبه من صفحات لم تتعدّ ستاً وخمسين، ولكنّها ضمّت خلاصة الخلاصة لما ذكره السيد محمد رشيد رضا في ثلاثة أجزاء كبار[1]!.

ومحمد عبده في رأي أحمد أمين رجلُ خلقٍ وسلوك قبل أن يكون إماماً مصلحاً! فهو شريف القصد، حرّ الرأي، عالي الجبهة، لا يخضع لأوضاع رسمية يراها ظالمةً مجحفةً، ويُجابه الكبراء من أصحاب الرأي النافذ والصيت البالغ بما يُحرجهم إذا كاد الإحراج سبيلاً لرد المظلمة وإحقاق الحق.

وقد قرأت لمن يحاول انتقاص الإمام فيقول: إنّ مؤلفاته قليلةٌ بالنسبة لبعض المعاصرين وهذا من العجب حقاً، لأنَّ مواقف الرجل مؤلفاتٌ ناطقة تُغني عن آلاف الصفحات، والمسألة ليست مسألة كمّ. فربّ كتابٍ واحدٍ أقامَ أمة وأقعدها، وربَّ مئة كتاب طبعت ولم تجد صدى أي صدى بين القرّاء، و(رسالة التوحيد) في زمانها المتقدم كانت شيئاً جديداً، وقد بذرت بذرها، فأعقبتها كتب رائعة تتحدّث بإفاضةٍ في

---

(١) في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام).

موضوعاتها، ووُجد من الأغرار من ينتقصُها مقارناً إياها بما جدَّ بعدها، ولم يـدْرِ أنَّها الأصلُ الأصيلُ الذي نهض عليه البنـاء الشامخ فيما بعد، ولولا الأساسُ الضارب بجذوره المتينة في أعماق الأرض ما نهض البناء!

وقد أخرتُ الكلام عن السيد (**أمير علي**)، وقد قدمه الدكتور أحمد أمين في الحديث عن غيره مخالفاً ما سلكه من الترتيب الزمني، إذ أعقب حديثه عن السيد أحمد خان بمواطنه الصالح، ليعقد مقارنة بينهما، لأن السيد أحمد خان كان يرى التربية والتعليم هما وسيلة الإصلاح في الهند من غير انغماس في شؤون السياسة، أما السيد أمير علي فيرى أن العمل السياسـي ضروري لجلاء المسـتعمر، وقد امتاز عن السيد أحمد خان بثقافته الغربية الواسعة، إذ تعلّم الإنكليزية تعلّماً جعله من كبار الكتاب بها، وقارئه يشعر أنّه من أعيان البيان الإنكليزي، وكانتْ دراساته لآراء الاجتماعيين والسياسيين والمؤرّخين من أعلام الإنكليز مدداً وافراً لحججه وبراهينه، حين أخذ يعارض الاحتلال بمنطق علمي مدعّمٍ، وحين كتب عن تاريخ الإسلام مقارناً آثاره الإصلاحية بآثار من سبق رسول الله ﷺ من الهداة والمصلحين، وقد ذاعت كُتبهُ (محمد وتعاليمه) و(روح الإسلام) و(مختصر تاريخ العرب) ذيوعاً كبيراً في كل بلد يقرأ الإنكليزية، بل تُرجم بعضها إلى الفرنسية والألمانية فساعد على محو شبهات ألحقها المغرضون ظلماً بالإسلام.

وحين عاد إلى الهند بعد دراسته الأولى بإنكلترة تولّى القضاء في أرفع مناصبـه، فكتب عن الشـريعة الإسـلامية كتابـاً رائعاً هـو (القانون الإسلامي) وقاد الحركة السياسية الإسلامية في الهند، ولقي العناء الشديد من الفريقين، فريق المستعمر الغاصب وفريق الهنادكة الذين يعارضون

الإصلاح الإسلامي، ويزعمون المسلمين قلةً يجب ألا تنفرد بتشريع خاص، ثم ناصر الدولة العثمانية في حروبها الأوروبية، ودعا إلى إنهاضها بعد هزيمتها في الحرب العالمية، كما فعل (مولاي محمد علي) و(مولاي شوكت علي) وكبار الزعماء من المصلحين، وألّف جمعيات خيرية كثيرة لمساعدة الفقراء والمرضى والأيتام، كما رأسَ عدة مؤتمرات إصلاحية كان هو واضع برامجها ومسجّل قراراتها.

هذا المصلح العظيم وقد وفّاه الأستاذ أحمد أمين بعضَ حقه، وعرّف الجيل الحديث ببعض آثاره، وجد من كتاب الهند من يعترض على أحمد أمين لأنه نشر ترجمة حياته، وعدّهُ من زعماء الإصلاح!! فقد قال الأستاذ محمد إسماعيل الندوي في بحثه المنشور بمجلة الأزهر تحت عنوان (زعماء المسلمين في الهند)(١):

«إن أحمد أمين عدّ (أمير علي) من زعماء الهند، وخصّص له باباً في كتابه، وترك (محمد شبلي النعماني)(٢)، الذي يُعتبر من رواد النهضة الحديثة في الهند، وأما (أمير علي) الذي كتب عنه أحمد أمين، فلا يعرفه أحد كزعيم ديني أو سياسي، فقد كان مجرّدَ كاتبٍ، صنّف كتباً كثيرة في اللغة الإنكليزية، وأشهرها (روح الإسلام) و(القانون الإسلامي) ولم يشتهر أبداً بين أوساط المسلمين كزعيم أو رائد للفكرة الإسلامية، ولا يعرفه كثير من المسلمين إلى الآن، لأن ثقافته كانت ثقافة إنكليزية، ولم يكن إنتاجه الفكري باللغة الثقافية وهي الأوردية».

---

(١) مجلة الأزهر، ربيع الأول/ ١٣٨١هـ.

(٢) انظر شبلي النعماني في سلسلة أعلام المسلمين رقم (٨٣) للأستاذ محمد أكرم الندوي، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

وهذا كـلامُ من يجهل الكثير عن الحركة السياسـية في مطلع هذا القرن بالهند، وعجيبٌ أن تشتهر هذه الحركة بين مثقفي العالم الإسلامي في بقاع الأرض، ويشتهر السيد أمير علي في طليعة أحرارها، ثم لا يعرف عنها من يكتب المقالات تحت عنوان (زعماء المسلمين في الهند) وهو ندويّ، تربّى في الندوة العلمية الرائعة، واستمع إلى شيوخها وأساتذتها، وقد ألّف الكثيرون من العلماء كتبهم باللغة الأوردية، فخدموا قارئ هذه اللغة فحسب، ولكنّ السيد أمير علي كتب بالإنكليزية، فقرأه كبار المثقفين في أكثر بلاد العالم المتحضّر! أفيعدّ هذا مأخذاً؟.

ولعل الأسـتاذ الندوي في حاجـةٍ إلى أن يعرف ما عرفـه المؤرخ المصري الكبير الأستاذ (محمد عبد الله عنان) حين كتب عن الرجل بحثاً ضافيـاً نشـرته جريدة السياسـة، ونقلته مجلة المنار عقب وفاته، حيث قال[1]:

«ولعلّ مفكراً مسلماً لم يعمل في عصرنا لبثّ دعوة الإسلام العلمية والاجتماعية قدر ما عمل أمير علي، برائع بيانه، وناهض حجته. وطريف نقده وتحليله، فقد خاطب أمير علي الغربَ بلغة غربية، وعمدَ إلى شرح مبادئ الإسلام الروحية والشرعية والاجتماعية بأساليب الغرب العلمية، فكان أوّل مسلم استطاع أن يُخرج للغرب صورةً صادقة من هذه المبادئ، تضطرم بإيمان مسلم أُشربت نفسُه روحَ الإسلام الحقة، لا تشوبها ذرة من التشييع والتحامل، وأن يعرضها في ثوب علمي محدث يتذوقه الذهن الغربي، ولا ينكره الذهن الإسلامي، وكان أول مسلم استطاع أن يخرج

---

(١) مجلة المنار، المجلد التاسع والعشرين، ص٣٥٢.

للغرب أجملَ وأدقَّ صورةٍ من المجتمع الإسلاميِّ ومدنيته وتفكيره» .

هذه زبدة ما يقال عن كتاب (زعماء الإسلام في العصر الحديث) وهو كتابٌ جدير بالذيوع الدائم لأنه يصوّر النهضة الإصلاحية في هذا العصر بقلم مخلص دقيق .

* * *

٤ ـ فيض الخاطر

لم يكن الأستاذ أحمد أمين في صدر حياته كاتب مقالة، بل كان باحثاً علمياً، يُلقي المحاضرات على طلاب مدرسة القضاء الشرعي، ثم يُصدر كُتبه المتوالية عن الأخلاق، وتاريخ الفكر الإسلامي، إلا ما ندر من كلمات متناثرةٍ قالها في مناسبات داعية للحديث كرثاء زعيم، أو تعليقٍ على حدث يجذبُ الأنظار، ثم ظهرت مجلة (الرسالة) سنة ١٩٣٣، وكان الأستاذ من كبار محرريها، فجعل ينشر في أكثر أعدادها مقالات شتّى، وذاعت شهرته كاتباً اجتماعياً، وأديباً محلّلاً، فاستكتبته صحفٌ أخرى، ومجلات شهرية وأسبوعية.

وأنشأ (الثقافة) بعد صدور (الرسالة) بستة أعوام، وقام على تحريرها، فتقاضاه ذلك أن يكتب مقالاً أسبوعياً دائماً، لم ينقطع عنه إلا نادراً، وبذلك توالت مقالاتهُ الخصيبة الممتعة على مدى أربعة عشر عاماً، كما ينهمرُ الغيث دفّاقاً مسكوباً في كل مرج خصيب.

وقد ظهر الجزء الأول من (فيض الخاطر) قبل أن تظهر مجلة (الثقافة) ثم توالت أجزاءٌ مثمرةٌ كونت عشرة مجلدات من فيض الخاطر، وبلغت مقالاتها قرابة تسعمئة مقالة، فأحدثت صدى طيباً بين القراء، وكان المثقفون يرتقبون مقالة الأستاذ كلَّ أسبوع، وزملاؤه من أصحاب الصحف الأدبية لم يبلغوا مبلغه في هذا الحشد العامر من المقالات.

فقصارى أحدهم أن يترك مجموعة مقالات، لا يتجاوز أربعة مجلدات، أو خمسة، وليست المسألة مسألة كمٍّ فقط، فما أهون الكمّ إذا قيس بالكيف، ولكنها مسألة كم وكيف معاً.

وقد تحدّث الأستاذ في مقدمة الجزء الأول من (فيض الخاطر) عن منحاه المقالي، وذلك قبل أن تصدر مجلة (الثقافة) فقال:

«هذه مقالات نُشِرَ بعضُها في مجلة (الرسالة) وبعضُها في مجلة (الهلال)، وبعضها لم ينشر في هذه ولا تلك، استحسنت أن أجمعها في كتابٍ، لا لأنها بدائع وروائع، ولا لأنّ الناس ألحّوا عليّ في جمعها، فنزلتُ على حكمهم، وائتمرتُ بأمرهم، ولا لأنها ستفتحُ في الأدب فتحاً جديداً، لا عهد للناس به، ولكنْ لأنّها قِطَعٌ من نفسي أحرصُ عليها حرصي على الحياة، وأجتهدُ في تسجيلها إجابةً لغريزة حُبِّ البقاء، وهي مجموعةً أولى منها مفرقة، وفي كتابٍ واحد أبين منها في أعداد، ثم لعلّي أقعُ على قرّاء مزاجُهم من طبيعة مزاجي، وعقلياتهم من جنس عقلي، يجدون فيها صورةً من نفوسهم، وضرباً من ضروب تفكيرهم، فيشعرون بشيء من الفائدة في قراءتها، واللذة في مطالعتها، فيزيدني ذلك غبطةً، ويملؤني سروراً، وأصدقُ كاتب في نظري من احتفظ بشخصيته، وجعل أفكاره وعواطفه تمتزجُ امتزاجاً تاماً بأسلوبه، وخير أسلوب عندي ما أدى أكثر معانيه وعواطفه في أقلّ ما يمكن، من غير عسر وغموض، وراعك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه، وكان كالغانية تستغني بطبيعة جمالها عن كثرة حُليّها، ولم يكن لي شرفُ إدراك هذه الغاية، ولكن كان لي شرفُ السير في سبيلها».

وهذه مقدمة موجزة، ولكنّها كانت صادقة كلّ الصدق، صادقةً من

الناحية النفسية ومن الناحية الأدبية، فمن الناحية النفسية تحدّث الأستاذ عما يُخالجُ كل إنسان من حبّه لآثاره، وحرصه على جمعها لتكون باقيةً ذائعة، كما أنّه صدق نفسه، وصدق الناس حين ذكر أنّ أحداً لم يُشرْ عليه بجمعها، وضرورة ذيوعها في جزء خاص، والأستاذ بذلك ينقدُ من يتورّطون في مقدّماتهم المملة، فيذكرون أنهم لم يكونوا ليرغبوا في جمع آثارهم لولا إلحاح القراء، ومواصلة الرغبة الملحّة في جمع ما كتبوه.

ونحن نقرأ هذا الكلام فنبتسم، لأن القراء بعد مطالعتهم ما نُشر في الصحف والمجلات أحدُ فريقين، فريقٌ اهتمّ بما قرأ، فحرص على حفظه وصيانته في مكتبته وفريقٌ لم يهتم بشيء، فترك المجلة تضيع في خضم الزمن، ولا يعني الفريقين معاً أن تُنشر المقالات مجموعةً أو متفرقةً! وقد عرف الأستاذ هذه الحقيقة فعبّر عنها أصدق تعبير.

أما صدقها من الناحية الأدبية فقد اعترف الأستاذ أنه كاتب أفكار وليس صاحب ديباجة بيانية تحتفل بالتعبير المؤنق، وبالموسيقى، وبالصور الجمالية، وهذا حق، ولا يُؤخذ من ذلك أن أصحاب البيان الأدبي المؤنق، والتعبير التصويري الرائع أقل من ذوي الأفكار المتتابعة في نسقٍ فكري مطرد، فللبيان الآسر زينته وإشعاعه، وكلٌّ ميسّر لما خلق له.

واحتفال الكاتب بمعانيه لم يحلْ دون الاهتمام بوضوح العبارة، وجودة التركيب، بل لم يُحل في كثير من الأحيان من الارتفاع إلى المستوى الأدبي الرفيع إذا صفت قريحة الأستاذ في أوقات الصفاء، فحلّقتْ مع الشعراء في آفاقهم، وأظهر ما يبدو ذلك في وصفه لمظاهر الطبيعة من بحرٍ وشجرٍ وزهرٍ وعطر، فله في ذلك من البدائع ما يجب أن يذكر دون جحود.

واشتهارُ الأستاذ بالتأليف العلميِّ الرائع البالغ حد الريادة والتوجيه،

قد دفع بعض الباحثين إلى عدّه عالماً لا أديباً، وذلك إجحافٌ أيُّ إجحاف، فللأستاذ في دنيا الأدب الخالص جهدٌ طيب عرفه المصنفون فاحتفلوا به معجبين، وقد قال الدكتور طه حسين في تحليله لكتاب (فيض الخاطر) بعد أن أشار إلى هذه المقدمة، ووقف عندها طويلاً[1] :

«وأخرى في هذه المقدمة، وهي مذهبهُ الفني، فهو من أصحاب المعاني لا من أصحاب الألفاظ، وهو يؤثر الإيجاز، ويكرهُ الإطناب، وهو يؤثر القصد، ويكره الزينة، وكل هذا حسن، وكل هذا يُقبلُ من الأستاذ حين يقوله، لأنه يقوله صادقاً فيه مؤمناً به، ولكن دع المقدمة، وامضِ في قراءة الكتاب، فسترى فيه فصولاً تروعُ بألفاظها أكثر مما تروع بمعانيها، وسترى فيه فصولاً تعجب بإطنابها أكثر مما تعجب بإيجازها، وسترى فيه فصولاً تروق بزينتها أكثر مما تروق بإيثارها القصد، واكتفائها بلبسة المتفضّل، والأستاذ صادق مخلص حين كتب هذه الفصول، التي تروعُ باللفظ لا بالمعنى، وتُعجبُ بالإطناب لا بالإيجاز، وتروق بالزينة لا بالقصد، وهو مناقضٌ لنفسه في هذا المذهب الفنّي الذي صوّره، وقضى به على نفسه، ولكنّه أديب، وليس على الأديب بأسٌ من هذا التناقض، فهو لا يتناقض في لحظةٍ واحدة، ولكن ما يكتبه من الآثار يمثّل لحظات مختلفة من حياته فيظهر مختلفاً متبايناً».

وتعليقاً على كلام الدكتور طه حسين، وهو مصيبٌ فيما قال، أذكر أن المسألة مسألةٌ نسبيةٌ، وأن الأديب يُحكم عليه بالطابع العام، لا بالجزئيات المتعددة، وطابع الأستاذ هو الاحتفالُ بالمعنى، وذلك لا يمنعُ النص على مقالاتٍ أدبية كُتبت بأسلوب الأدب الفني المطبوع،

---

(١) فصول في الأدب والنقد لـ (طه حسين)، ص١٨ .

وهذا ما عنيته حين ذكرت أن النقاد ظلموا أحمد أمين حين كسروه على اتجاه واحد!.

ومُحلّل اتجاه أحمد أمين في (فيض الخاطر) لا يحتاجُ إلى بحثٍ جاهد في هذا التحليل، لأن ميزة أحمد أمين أنه عبّر عن أكثر خلجاته الأدبية في كل ما تناول من بحث، كان الرجل كثير الجلوس مع نفسه، يسائلها عن سلوكها العملي مساءلة جادة، فيزن أعماله بالقسطاس المستقيم، يأسف لما فرّط فيه كبشرٍ، ويسعد بما قدم من نجاح يلمس شواهده، كما كان يسألها عن اتجاهه الأدبي، أهو باحثٌ أم أديبٌ؟

والكاتب الكبير يعرفُ سمات الباحث، وخصائص الأديب، ونتاجه الفسيح يدل على أنه باحثٌ وأديبٌ معاً، وقد كتب موضوعاً صادقاً تحت عنوان (كتابة المقالات) ظاهره أنه حديثٌ عام، وباطنه أنه تعبيرٌ عن شعورٍ خالص يتلبّس نفسيّة أحمد أمين، ويملك إحساسه، بل يصدر عنه فيما خطّه من مقالات وبحوث، يقول الكاتب[1]:

«هناك أنواعٌ من المقالات يصحّ أن نسميها مقالاتٍ علمية بالمعنى الواسع، فتشملُ المقالات الاجتماعية، كما تشملُ بحث مسألةٍ أدبية بحثاً علمياً، وهذا النوع سهلٌ على الكاتب متى تيسرتْ أدوات البحث، من كتب ومراجع ونحوها، وتوفّر له حسن الاستعداد من معرفةٍ بمناهج البحث وأساليبه، فكلُّ وقت صالحٌ لكتابة هذه المقالات، وإعدادها، ما لم يكن الكاتب في حالة استثنائية من مرض ونحوه».

ولي تعقيبٌ على الرأي الأخير، وهو صلاحيّة كل وقتٍ للبحوث

---

(١) فيض الخاطر: ١/ ١٧٨.

العلمية، لأن الذي ينهض للبحث العلمي في كل زمان ومكان لا بدّ أن يكون من طراز أحمد أمين، وهو طرازٌ يمثّل الأقلية الرائدة، أما المجموعُ فليست البحوث العلمية لديهم من السهولة بحيث يقرؤون المراجع، ويحسنون المناهج، ويجيدون التعبير، ثم يكتبون البحث عن أصالة، فهناك عقباتٌ شداد، تبذل في سعة الاستيعاب، وحُسن الاستنباط، وسلامة الخطوات، وصحة النتائج، وكم دون ذلك من أهوال.

ثم يقول الأستاذ: «وهناك نوع من المقالات الأدبية بالمعنى الخاص، وأعني بها الأدبية أدباً إنشائياً صِرْفاً، لا أدبَ بحثٍ ودرسٍ، وهذه أصعبُ من الأولى، حيث إنها تتطلّب مع حسن الاستعداد المزاج الملائم، فليس الكاتب في كل وقتٍ صالحاً لها، بل لا بدّ أن يكون مزاجهُ ملائماً للموضوع الذي يريدُ أن يكتب فيه، فإن كان الموضوع مرحاً لا بدّ أن يكون مزاجُ الكاتب مرحاً، وإن كان الموضوع حزيناً عابساً فلا بدَّ أن يكونَ مزاج الكاتب من هذا القبيل، ولذلك قد تمرّ على الكاتب الأديب أوقاتٌ وخلعُ ضرسه أهونُ عليه من كتابة مقال، وهو إذا حاول ذلك فكأنما يمتح من بئر، أو ينحت في صخر. ذلك لأنّ المقالات الأدبية لا بدّ أن تنبع من عاطفة فياضة وشعور قوي، فإذا لم يتوفر ذلك عند الكاتب خرجت المقالة فاترةً باردةً لا يشعر فيها القارئ بروح، ولا يحسُّ منها حرارة وقوة».

هذا الانتظارُ لوقت الصفاء ـ ويسمّيه الأستاذ أحمد أمين ـ في بعض مقالاته (لحظات التجلي) وهو موضوع أثنى عليه أكثر من أديب ناقد، ويكفي أن أوجه النظر إليه، هذا الانتظار جعل المقالات الأدبية الخالصة في مجموعة (فيض الخاطر) بأجزائها العشرة، أقلّ من الموضوعات العلمية، لأن الكاتب ألزم نفسه أن تكون له مقالة رئيسة في كل عدد من أعداد الثقافة إلا ما ندر، ولحظات الصفاء لا تُتاح أسبوعياً كما يودّ الأستاذ

أحمد أمين، لذلك نجده يعالج بحوثاً أدبيةً واجتماعيةً في أكثر هذه المقالات.

وهو لَبِق كيّس، يعرف أن البحث العلمي في مقالةٍ بمجلةٍ غيره في كتابٍ علميّ مستقل، فيحاول أن يكون يسير التناول لا من حيث دسامة الفكرة، فهي في كلّ مقالٍ ذات سطوع، ولكن من حيث تناولها، وإذا أحس الأستاذُ ببعض التركيز لجأ إلى التلخيص في آخر المقال كما فعل في بحوثه عن جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي.

وكثرة مقالات الأستاذ العلمية ـ بالمعنى الواسع كما أشار ـ هي التي دفعت الدكتور (زكي مبارك) في مقالاته المهاجمة بمجلة (الرسالة) أن يُنكر أنّ لأحمد أمين أسلوباً متميّزاً، ويعدّهُ باحثاً لا يجيد تحليل الخواطر، وتصوير النزعات، ولكنّه بعد أن استراح من هجومه العاصف عدّة شهور، راجع نفسه، فنفى ما أثبت من قبل، في مقالٍ تحليلي كتبه عن الجزء الأول من (فيض الخاطر) وهذا ما لاحظه الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد، حيث كتب بالعدد (٣٩٧) من مجلة الرسالة (١٠/ ٢/ ١٩٤١) خطاباً تحت عنوان (إلى الدكتور زكي مبارك) قال فيه:

«كان قلمكم الثائر قد خط في مقالكم الخامس في نقد آراء الأستاذ أحمد أمين، وتبيان جنايته على الأدب العربي (الرسالة ٣١٤ ـ يوليو/ ١٩٣٩) أنّ هذا الأستاذ لم يؤتَ أسلوباً خاصاً. وأنه ما كان في يوم من الأيام أديباً، وقلتم: إنه ليس له أسلوبٌ، وأن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحسن الثورة على ما يكره، والأنس بما يحب، فعندئذٍ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية، ويعبّر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوبٍ خاص.

وقد عاش أحمد أمين في الواحات فلم يصفها، واشتغل بالقضاء الشرعي فما توجّع مرّةً واحدةً للمآسي التي رآها، ولو كان أحمد أمين أديباً لكتب خواطره، وسطّر إحساساته في القضاء، وفي الواحات».

وتمضي على ذلك سنة ونصف سنة، ويأتي العدد (٣٨٤ ـ ١١ نوفمبر/ ١٩٤٠) من (الرسالة) فماذا نجد؟ وماذا نرى؟.

نجد أن الدكتور زكي مبارك يقول: «يجب الاعتراف بأنّ لأحمد أمين أسلوباً، وبأن لهذا الأسلوب شخصيةً تتميز بالسهولة والوضوح، وبأنّ في كتابه (فيض الخاطر) مقالات من الأدب الذاتي، وهو الأدب الذي يصوّر الكاتب وإحساساته، ثم رجا طلاب السنة التوجيهية أن يفطنوا وهم يقرؤون كتاب (فيض الخاطر) إلى أنّ المؤلف أديب، يصوّر لواعج نفسه».

ثم يقول الدكتور صلاح الدين المنجد: «فهل للأستاذ زكي مبارك أن يجلو لنا السرَّ الذي جعل أحمد أمين أديباً هنا، أم أنّ ذلك من باب رضيت فكسوتُه، وغضبت فجرّدته».

والسّر الذي يبحث عنه الأستاذ المنجد، ولم يحاول مبارك كشفه، هو أن الدكتور زكي عند الهجوم يندفع بأقصى ما يكون من السرعة دون اتئاد، فيشتطّ في أحكامٍ تتطلب الهدوء، وهو في تحليله لكتاب (فيض الخاطر) لم يكن مُهاجماً، بل كان ناقداً متئداً، فاعتدل في كفّه الميزان.

وقول الدكتور مبارك: إنّ أحمد أمين قد عاش في الواحات وفي القضاء الشرعي، ولم يُفصح عن ذات نفسه، يردّه أنَّ الرجل قد كتب خواطره، ولم يشأ نشرها إلا بعد أمدٍ طويل، إذ حفل كتاب (حياتي) بكل ما تطلّب مبارك.

وأحمد أمين رجلٌ رزين هادئ، يؤثر التؤدة، ويُراعي من الملابسات ما لا يراعيه الدكتور مبارك، ولذلك آثر الانتظار حتى سمح لخواطره بالإعلان.

وإذا نظرت إلى مقالات (فيض الخاطر) بأجزائه العشرة نجدها أكثر سعةً وشمولاً من مجموعات مماثلة للرافعي والبشري والزيات والمنفلوطي، لأنّ أحمد أمين كان يعبّر عن كل خاطر يسنح له، علمياً كان أو وجدانياً، وعدمُ اهتمامه بأناقة الأسلوب التعبيري كان سببَ هذا الفيض الزاخر.

ومحلل الكتاب الضخم يعجز عن إيفائه حقّه في فصل واحد من كتاب محدود، ولكنّ ذلك لا يمنع أن أشيرَ إلى العلامات البارزة في هذه الموسوعة الراقية فكراً وتعبيراً وتصويراً، ومن هذه العلامات الحوارُ الفكري الذي امتاز به الكاتب الكبير، وترقرق في صفحات الفيض، ومنها النظرات الأدبية التحليلية لمشكلات معقدة، ومنها الإمعانُ في وصف بعض مظاهر الطبيعة الخالبة. هذا غير نزعاته الإصلاحية في مضماري التجديد الإسلامي، والإصلاح الاجتماعي، وكل علامة من هذه العلامات جديرة بالوقوف الوئيد، ولا يمكن لضيق المقام أن نشيرَ إلى جميعها، ولكن سنختار منها:

وأبدأ بالحوار الرائع الذي انسجم في صفحات (الفيض) وبخاصة ما جاء تحت عنوان (في الهواء الطلق) إذ لا أجد له مثيلاً فيما بين يديَّ من آثار المعاصرين، وأنا أُرْجِعُ ذلك إلى كتاب (الإمتاع والمؤانسة) الذي أشرف الأستاذ على تحقيقه، حيث إنّ أبا حيان في هذا الكتاب قد بلغ الذروة إبداعاً وإحكاماً، وقد أحاط بمجالس السمر التي عُني بتسجيلها

إحاطة الدؤوب اليقظ، الذي يسمع ويناقش ويعترض في شدة انتباه وإحكام رصد، ولا أكاد أجد لأبي حيان التوحيدي نظيراً في منحاه، إذ ظلّ كتابه الرائع إعجازاً يتحدّى لاحقيه، كما أعجز سابقيه، وقد انتفع الدكتور أحمد أمين بدراسة هذا الكتاب في أجزائه الثلاثة حين أشرف على تحقيقه، فأوحى له أن يجعلَ من مجالسه مع زملائه في (لجنة التأليف والترجمة والنشر)، وهُمْ صفوة المفكرين في مصر، وفي غير مجالس اللجنة من سحر الرحلات، ومجاذبة الندوات، ما سجّله بإمتاعٍ في كتابه الكبير. . . وقد كتب: أتمنى أن تجمع هذه الأحاديث في نطاقٍ خاص، وفي جزءٍ منفرد، كيلا تضيع في خضمّ أخواتها من المقالات! ويكونُ لها عنوان جاذبٌ للقراء مثل عنوان (الإمتاع والمؤانسة) الذي اختاره أبو حيان.

وأضربُ المثل لذلك ـ عفواً دون قصد ترجيحي ـ بما جاء في الجزء الثالث تحت عنوان (حديث الخميس) في مقالين يتحدثان عن مشكلات عصرية اجتماعية وسياسية، حيث ابتدأ المجلس بحديث عن حالة الشرق بعامة، ومصر بخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت الحرب في نهاياتها ـ فقال قائل: إنّ كلَّ أمم الأرض في الغرب ترسمُ صورةً لما ينبغي أن تكون عليه بعد الحرب، وتصدر الإحصائيات، وتحتم الخطط، وتعالج الأمراض، ما عدا أمم الشرق فما سرّ ذلك؟.

فدُهش الحاضرون للسؤال. وكأنّهم لم يتوقعوه، وأجاب متسرّع فقال: الهدف معروف، وهو الاستقلال! فردّ عليه زميلٌ بأنَّ كلمة الاستقلال مُبهمة، لا ترسمُ خطةً، ولا تحدّد إصلاحاً، ثم إنّ الاستقلال مختلفُ المعنى بالنسبة للدول المتجاورة وما بينها من الخلافات، وبعد إفاضةٍ في تفصيل ذلك قال قائل: يجب أن نتناسى هذه الخلافات، ليتسنى وضع البرامج الإصلاحية في الاقتصاد والسياسة والعمران، والتعاونُ لازمٌ بين

الأمم العربية، ليساعد بعضها بعضاً.

وما كاد حديث هذه المساعدة يلوح حتى انبعث من يقول: إذا كان لكل أمةٍ مشكلاتها الخاصّة التي تعبئ الجهود لحلها، فكيف ينتظر منها أن تساعد غيرها؟ وهو اعتراضٌ وُجد من يدفعه بقوله: إنّ الأمم الأمريكية والأوروبية جميعها ذاتُ مشاكل تخصّ كلّ واحدة منها، ولم يمنع ذلك من الاتفاق على مُساندةٍ قوية بين هذه الأمم!.

فصاح صائح: تلك أممٌ مستقلة تملكُ كلَّ حرياتها، ولكنها لا تزالُ ترزحُ تحت قيود الاحتلال، وهو لا يسمحُ بتعاونٍ سياسي أو حربي.

وجاء الرد بأن للتعاون أوجهاً أخرى غير هذين، هناك التعاون الاقتصادي والثقافي. نبدأ بهما كخطوة أولى.

وصاح متشائم: أنا أعرف جيداً أنّ التعاون السياسي جائز نظرياً، صعبٌ عملياً، ودلّل على قوله بما رآه.

وامتدّ الجدل في انسيابٍ يدلّ على أنّ الأستاذ أحمد أمين لم يكنْ مسجلاً فحسب، بل كان مُبلوراً ومصحّحاً، وموجّهاً، وهذا غايةُ ما ينتظر من مسجلٍ راق لأحاديث ندوة ممتازة.

هذا بعض ما يشير إلى المجلس الأول، أما المجلس الثاني، فقد اتجه إلى مسائل أخلاقية تحتمل الخلاف العقلي، إذ طرأ حديث اختلاف الأمزجة بين الناس، وأثر المزاج في سلوك الإنسان، فقال قائل: إنّ اختلاف المزاج يرجعُ إلى حالة الإنسان الصحية، فإذا كانت الصحة سليمة منتعشة فلا تكدير ولا عبوس، وإذا كان المرض ذا دلائل فهنا الانقباض، وانحراف المزاج، وهذا الكلام مع سداده وجد الاعتراض، إذ كثيراً ما ينحرف مزاج الإنسان وهو صحيحُ الجسم، وقد يكون المريض

متفائلاً، قويّ الأمل في رحمة الله، فيعتدل مزاجه.

وهنا انتقل الحديث من عُنصري الصحة والمرض، إلى ما لا يمكن تعليله، حيث قال قائل: إن أمور الحياة لا تخضع إلى ميزانٍ دقيق تُعرف به النتائج الصحيحة، فقد يكونُ وضعٌ ما مبشراً بسعادة، ثم يأتي السوء، كما يكون وضعٌ آخر مبشّراً بتعاسة ثم ينفرج عن هناء.

وتوالت الأمثلة الدالة على ذلك! واطّرد الحديث في هذه الناحية مع متعته العقلية الرائعة يحولُ دون تلخيصه، لأنّ إيجازه يُطفئ بريقه الأخّاذ! وبخاصة فيما اتجه إليه الحديثُ من مشكلات الجمال وعقباه! إذ قد تشقى المرأة الجميلة، وتسعدُ المرأة الدميمة، ثم إنّ الإنسان يستثقل ما يستظرفه غيره أحياناً، وكلاهما مفكرٌ متزن راقي الحسّ!.

وهنا اندفع القول فيما يُسمّى بالإشعاع النفسيّ، الذي يُختصّ به بعضُ الناس، فيُحدث تـأثيراً لا يُوجَدُ لدى من فقدوا هذا الإشـعاع... والحديث جميعه ذو حوار ممتاز، ولو سلك أصحاب الندوات الرفيعة مسلك أبي حيان - أو أحمد أمين - في رصد هذه النفثات الألمعية لكان لأحاديث المجالس مجلّدات دسمة ذات اشتهاء.

إنّ الذين ينكرون أن يكـونَ أحمد أمين أديبـاً موهوبـاً ذا أسلوبٍ مشرقٍ، هم في حاجة إلى أن يقرؤوا موسوعة (فيض الخاطر) باحتفالٍ، ليجدوا من الأجـزاء العشرة ثلاثـة أجزاء على الأقل من الأدب الخالص المطبوع ضاعتْ في خضمّ البحوث الأخرى، وأمثّل لهذا النوع من الأدب المطبوع بموضوعين بلغا الروعة في الإبداع. ولهما أمثال وأمثال.

أما الموضوع الأول فمقال (حلم عجيب) في مفتتح الجزء السادس، وقد اخترته، لأنه جمع خصوبة الخيال، وعمق الفكرة، وإشراق التعبير،

وماذا يبقى بعد ذلك من عناصر الأسلوب؟!! فخصوبة الخيال تتجلّى في اختيـار مصباح علاء الدين ليكون وسيلةً صادقةً لرؤية الناس والأشـياء والحياة على حقيقتها، فقد عثر عليه الكاتب الكبير بعد ليلة نابغيّة أرق فيها لزكامٍ اعترى أنفه، فعاقه عن الهدوء في الرقاد، وأجبره على أن يترك البيت إلى الشارع، ليجد هذا المصباح، فسارع إلى منزله ثانية، ليسـعد برؤية ما بداخله، وأدار المفتاح فخرج له مَنْ يسأله عن مطالبه ليحققها في الحال، فقال له الأستاذ: أريدُ ثلاثة أشياء، أن أرى الناس على حقيقتهم والتاريخ على حقيقته، والدنيا على حقيقتها، فدُهِش المسؤول إذ لم يتعود مثل هذه المبتكرات الغريبة في دنيا الآمال ـ وقد فصّل الكاتب ذلك بما يحلّ به إيجازي المقتضب، ولكنّه أجاب عن طوع، وبدأ بالمطلب الأول حين أدار الأستاذ مفتاح المصباح، فرأى الأناس على غير ما يعهد، فعالِمٌ كُتب على بطاقته أنه جاهل، ووزيرٌ نابه كتب على بطاقته أنه لصّ سارق، وزعيمٌ وطني كُتب على بطاقته أنّه خائن منافق، وأميٌّ غافل كُتب على بطاقته أنه حكيم عاقل! وعلى الجملة فقد انقلبت الأوضاع، وانعكست الأمور إلى غير ما يعهد الأستاذ. . .

ثم حان تحقيق المطلب الثاني، فأدار الكاتب المفتاح ليقرأ كُتب التاريخ الحقيقية، فراعه أن كثيراً مما عرفه قد شطب وكُتب عليه أنّه كذب، ثم دُهش لأن قائداً عظيماً يعرفهُ القراء قد وُصف بالجبن والخسة، ورجلاً مغموراً لا يعلم أحد عنه شيئاً قد وصف بالسموّ والارتقاء وهكذا.

وجاء المطلب الثالث فصارت الدنيا في مصباح علاء الدين غير الدنيـا، فهي ليسـت صافيـة الأديم كما يعهد، ولكنهـا ذاتُ رعد وبرق ودُخان، وتُؤذن بالزلازل والبراكين، وخاف الأستاذ على نفسه، فأطفأ المصباح لينجو من الزلزال المتوقع.

هذا المقال الرائع احتلّ خمس صفحات من الكتاب، وليس في حاجة إلى تنويهٍ أدبيّ يضعه موضعه اللائق، لأنه أبلغُ رد على من ينكرون على الأستاذ صفة الأديب، ومنهم للأسف ابنه حُسين كما سجل ذلك في كتابه (في بيت أحمد أمين) **وحسين مشتطٌّ دائماً**.

هذا عن الموضوع الأول. أما الموضوع الثاني فتحت عنوان (وحي البحر) وهو المقالُ الأول بالجزء الثاني، وهو نموذجٌ لأدب الطبيعة الرائع في تصويره واستشفافه وإلهامه، فقد جلس الأستاذ على صخرة مشرفة على البحر وحيداً، دون صديق، وقاده تفكيره إلى أن صداقة النفس مِنْ ألزم اللوازم للإنسان، إذ لا يستطيعُ أحد أن يهربَ من نفسه، فماذا تكونُ الحال لو كانت عدوًّاً، كما هو الواقع عند الكثيرين؟!.

وبعد طوافٍ في هذه المعاني النفسية انتقل الكاتب إلى وصف البحر ذي الجمال والجلال، فهو جبارٌ حتى ليرتعد منه أسطول، ووديعٌ حتى ليداعبه طفل، والفرقُ بعيد بينه وبين البر، لأنَّ البر قد خضع للإنسان كما يخضع الحيوان المستأنس أما البحرُ فباقٍ على وحشيته منذ خلقه الله، يبتلعُ الصغير والكبير، والمركب والأسطول، وهو مع عمقه الهائل وموجه المضطرب مبعث جلال وجمال.

وينتقل الفيلسوف المفكر نقلة أخرى، فيقرّرُ أن الإنسان والبر والبحر معاً وحدةٌ واحدة، كلّها تخضع لإرادة واحدة، إذ يدور الكون في نظام وإحكام، يعجزُ العقل عن إدراك كنههما، كما تعجز النملة عن إدراك الكرة الأرضية التي تسير فوقها.

ويختم الكاتب مقاله بهذه الخاطرة: «ثم جاءتْ موجةٌ عاليةٌ فلطمت الصخرة ـ التي يجلس عليها ـ لطمةً قويةً، أصابه رشاشها، فتنبّه من أحلامه

الفكرية، ورجع إلى حيث يقيم».

ولا يطلب القارئ منّي أن أطوفَ بهذه الدنيا الحافلة بالمعاني في الأجزاء العشرة ذات الصفحات الحافلة، ولكني أُوجز ما أريد حين أعلنُ أن كثيراً من مقالات (فيض الخاطر) قد ترك صدى رناناً بين الباحثين، حيث دارتْ حوله معارك أدبية أورثت الجوَّ الفكريَّ نشاطاً حياً.

وقد خصصت بعض هذه المعارك بشرحٍ سابق يبرز أثرها الفكري المشاهد، ومن الذي لا يعلم - من أبناء الجيل الماضي - ما تركته مقالات (جناية الأدب الجاهلي) من عراك فكريّ في مجلات (الرسالة) و(الثقافة) و(الأزهر) و(دار العلوم) وغيرها، إلى مقالات أخرى أحدثت الصدى الجهير، مثل مقالات: (العربي لا يشعر إلا في بيئته) و(ندرة البطولة)، و(ضعف اللغة العربية في تدريسها التربوي) و(الشرق بين المادة والروح)، و(أدب الروح وأدب المعدة) و(الحضارة الأوروبية في ميزان التقويم)، وغيرها مما لا سبيل إلى استيعابه...

أما الإصلاح الاجتماعي فمقالاته ذات تجديد، وقد يجدُ الأستاذ من يخالفه في بعض اتجاهاته، وهذا شيء طبيعي، لأن الكاتب المكثر لا بدّ أن يجد من يعارضه في بعض ما يتدفق به قلمه السيّال، والكلمة الأخيرة لم تُقلْ بعدُ على غير ما يعتقد من يدقّقون ويُمعنون ويحسبون أنهم بلغوا الشاطئ وهم عنه بمنأى بعيد، وهذا قولٌ أسوقه لنفسي، لأني لم أبلغ بحديثي عن (فيض الخاطر) كثيراً مما أريد.

* * *

٥ ـ حياتي

ظهرت كتب كثيرة يتحدث أصحابها عن سيرهم الذاتية؛ كطه حسين وسلامة موسى، ومحمد حسين هيكل، وغيرهم، ولكن سيرتين كان لهما أثر كبير لدى القراء، هما سيرتا (أحمد أمين) و(ميخائيل نعيمة)، وقد يعترضُ من يقول: إنّ كتاب (الأيام) لطه حسين حاز شهرةً فائقة، وأصبح الأول في موضوعه عند الكثيرين، وهذا حقّ، ولكني لست من هؤلاء الكثيرين، لأن طه حسين في (الأيام) تعمّد الصدق الفني لا الصدق الواقعي، فأبرز نفسه في صورة المضطهد من كل من حوله، حتى أخيه الذي عطف عليه وتحمل العناء في سبيل راحته بالقاهرة.

أما أحمد أمين فقد التزم الصدق قدر المستطاع، وأقولُ قدر المستطاع لأن كل إنسان مهما تحرّى الصدق لا يستطيعُ أن يتحدّث عن أمور تكون موضع نقد صريح، هذا عندنا في الشرق، وهو سلوكٌ حميد تحرص عليه الفضائل الشرقية، أما الذين يكتبون عن فضائحهم في أوروبة، ويتباهون بما يكتبون، ويجدون عندنا من يُترجم مخازيهم تحت عنوان (الاعتراف) وكأنها نصر مبين! هؤلاء لا يرضون غير طائفة سطحية من الناس، إذ ما جدوى أن يتحدث الإنسان عن مخازيه، وكأنه فاتح منتصر.

أرجعُ إلى كتاب (حياتي) فأقول: إنه يحتوي على الصدق الكثير في سيرة كاتب باحثٍ حمل أمانة القلم، وشقَّ طريقه في الصخر صامداً،

وألّف في الفروع المختلفة من قضايا الأدب والنقد والتاريخ والاجتماع، وقام على تحرير مجلة وجّهت القراء إلى المستويات الرفيعة في الآداب والعلوم والفنون، ومع هذا النصر المبين في دنيا العلم والأدب والخلق فقد خاف الرجل من حديثه عن نفسه خوفاً ظهر في سطور كتابه. وقدّم تاريخ حياته سجلاً رائعاً لكفاح إنسان عصامي، بذل أقصى جهده، حتى صار علماً من أعلام الفكر في العصر الحديث.

يقول الدكتور (أحمد أمين) في مقدمة كتابه: «لم أتهيب شيئاً من تأليف ما تهيبت من إخراج هذا الكتاب، فإن كل ما أخرجته كان غيري المعروض، وأنا العارض، وغيري الموصوف وأنا الواصف، أما في هذا الكتاب فأنا العارضُ والمعروض والواصف والموصوف، والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدوّ أو صديق، أو بمحاولة التجريد، وتوزيعها على شخصيتين، ناظرةٍ ومنظورة، وحاكمة ومحكومة، وما أشقّ ذلك وأضناه».

وقد اهتدى الأستاذ إلى حقيقة نفسية صادقة حين قال بعد ذلك:

«ثم إن حديث الإنسان عادةً عن نفسه بغيضٌ ثقيل، لأن حب الإنسان نفسه كثيراً ما يدعوه أن يشوبَ حديثه بالمديح، ولو عن طريق التواضع والإيحاء والتلويح، وفي هذا المدح دلالةٌ على التسامي والتعالي من القائل، ومدعاةً للاشمئزاز والنفور من القارئ والسامع، ولذلك لا يُستساغ الحديثُ عن النفس إلا بضروبٍ من اللياقة، وأفانينِ اللباقة».

هذا بعض ما جاء في المقدمة الصادقة، وهو تحليلٌ صادقٌ لنفسية المتحدّث عن نفسه، فكلُّ إنسانٍ يحبُّ المديح من غيره، وأولى ألا ينتقص نفسه، فيصمها بما يجعلها موضعَ النقد، والكاتب المجيد، هو الذي

يعرضُ ما يتخيّله من الأوضاع المنقودة بالنسبة إليه موضعَ المعتذر المقرّ، وهذا ما قام به الأستاذ أحمد أمين، وهو بذلك قد أرضى نفسيّة القارئ، لأنّ القارئ في صميمه الإنسانيّ محتاجٌ إلى أن يعلم من نقائص العظماء مايجعلهُ يحتملُ نقائصه الخاصّة. ويرى أن الكمال المطلق لم يُتح لإنسان! فهو بالوقوف على هذه النقائص يُحبُّ الكاتب، ويسير معه إلى غايته سعيداً بما يقرأ، لا سيّما إذا كانت هذه النقائص من الصغائر لا من الكبائر.

أما الكاتب الذي يُضخّم نفسه دائماً، ويجعل أعماله موضعَ الإعجاب والتقدير فنصيبهُ من عطفِ القارئ محدودٌ، ولن يصل إلى مكانة من جعل نفسه إنساناً يخطئ ويصيب، وسيرة الدكتور (أحمد أمين) العامة ذائعةٌ مشتهرة، كتبها تلاميذه ممن تحدثوا عن سيرته، وسجّلها أصدقاؤه في كتاب قيّم يحمل اسمه، ولكن غير المشتهرة تلك الخوافي النفسية التي تحدّث عنها الرجلُ في حياته، فكانت موضعَ عبرةٍ وإعجاب معاً، وسأُلِمُّ ببعضها دون استقصاء:

تحدّث الكاتب عن حيرته وهو ناشئ صغير بين ما يأخذه في المدرسة من دروس الحساب والتاريخ واللغة الإنكليزية وبين ما يفرضه أبوه العالم الأزهري عليه بعد خروجه منها، مِن حفظ القرآن ومتون اللغة والنحو، إذ كان الوالد يعدّه للأزهر بحفظ القرآن والمتون، ويعدّه للمدارس المدنية بعلومها المختلفة، وهذا ضغطٌ شديدٌ لا تتحمله أعصابُ الطفل الناشئ. وهو أحياناً يقصّر فيضربه والده، وتتدخّل أمه فيثورُ عليها الوالد، يقول المؤلف في توضيح هذه المشكلة[1]: «كان هذا الضغط الشديد مثاراً لثورتي أحياناً، فربّما كنتُ أهرب من فقيه المكتب ظهراً، أو من الذهاب

---

(١) حياتي، ص٤٥.

إلى أبي عصراً، أو أدّعي المرض، وليس بي مرضٌ، ولكن إذا اكتُشف هذا كان جزاؤه الضرب الشديد، فتخمد ثورتي، ولقد جرّبتْ أمي حظّها، فكانت تتدخل في الأمر حين يضربني، ولكنها رأتْ أنها وإنْ تدخّلت حين الغضب والضرب، فقد يتحولان إليها، فكان هذا إذا حدث فيما بعدُ تكتفي بالصراخ والعويل بعيداً.

وقد استمررتُ في هذه المدرسة، وكنت متفوقاً في اللغة العربية بفضل ما آخذه من الدروس على والدي، وفوق المتوسط في الحساب، وضعيفاً في اللغة الفرنسية، لأنّ أبي لم يتركْ لي الزمن الكافي لمذاكرتها».

ووالدُ الأستاذ معذورٌ في مسلكه مع ابنه، فهو عالم أزهري يرى من واجبه أن ينشأ ابنهُ نشأةً تُلمُّ بعلوم اللغة والدين، والمدارس المصرية في عهد الاستعمار الإنكليزي لا تهتمّ بالقرآن ولا بالفقه، فرأى أن يُتمم هذا النقص، ولكنه غير معذور حين يكلّف ابنه، ويُرهقهُ بالكثير من علوم اللغة، وفي البعض ما يكفي، كما لا يُعذَرُ في تهديد الوالدة وقمعها، ولكنّ الأسرة في حياة أحمد أمين كانت ترى للوالد كلّ سيطرة، والرجلُ ابن بيئته.

ومن مراسيم هذا الوالد أن يجعل ابنه الصغير مثله في ارتداء العمامة والكاكولة، وهو أمرٌ مستغربٌ، تحدّث عنه الأستاذ.

قال[1]: «هاأناذا في سن الرابعة عشرة، يُلبسني أبي القباءَ والجبةَ والعِمّة والمركوب، بدل البذلة والطربوش والجزمة. وكان منظري غريباً على من رآني في الحارة أو الشارع، فقد عهدوا أنَّ العمامة لا يلبسها

---

(١) حياتي، ص٤٩.

إلا الشاب الكبير أو الشيخ الوقور أما الصغير مثلي فإنما يلبسُ طربوشاً أو طاقيّة، ولذلك كانوا كثيراً ما يتضاحكون عليَّ إذا رأوني بالعمة، فأحسُّ ضيقاً شديداً، وخجلاً بالغاً، وأتلمّس الحارات الخالية من الناس لأمرَّ بها، والمصيبةُ الكبرى كانت حين يراني من كان معي في المدرسة (بعد أن تركها والتحق بالأزهر) فقد كان يظنُّ أني مُسِختُ مسْخاً، وتبدّيت بعد الحضارة. وكأن الذي كان يربطني بهم هو وحده لبسي ولبسهم، لاطفولتي وطفولتهم، فنفروا مني مع حنيني إليهم.

وسرعان ما انقطعت الصلة بيني وبينهم، فانقبض صدري، لأني فقدت أصدقائي القدامى، ولم أستعضْ عنهم أصدقاء جدداً، فكنتُ كالفرع الذي انقطع من شجرته، أو الغريب في غير بلدته».

وتربيتهُ الأزهرية، وحرصُ والده على تعليمه النحو من طريق المتون الذائعة في ذلك الحين، جعلاه متفوقاً في المسابقة التي عُقدت لاختيار مُدرسين بمدرسة (راتب باشا) بالإسكندرية فأصبح يشعر باستقلال نسبي، وانتقل من بلدٍ إلى بلدٍ، ومن جوٍّ إلى جوٍّ، وصادف من المتاعب بين الزملاء ما ضاق به صدره، وكان المدرّس الناشئ أميناً مع قارئه حين اعترف بأنه وهو المدرس كان ضعيفاً في دروس الإنشاء، بحيث كان بعضُ تلاميذه يكتب خيراً مما يكتب، ودروسُ الإنشاء لا تتّصل بعلوم النحو والصرف التي أتقنها مع والده، وكان على الوالد وهو عالِمٌ يدرّس بالأزهر أن يلفته إلى مطالعة الآثار الأدبيّة. ولكنه هو الآخر لم يكن يكترث بها، إذ كانت علوم الأدب بالأزهر في الدرجة الثانية، وكان الأستاذ سيد المرصفي الذي يشرحُ (الكامل) للمبرد في دروسه الأدبية، لا يلقى من الإجلال بين زملائه مايلقاه من متخصصون في شرح (التلخيص) وحواشيه المختلفة. وكلّها عناء لا طائلَ تحته.

لقد اعترف أحمد أمين بتقصيره الأدبي حين قال[1]: «لقد درّستُ في مدرسة (راتب باشا) اللغة العربية للسنة الرابعة الابتدائية، وكان هذا فخراً كبيراً، إذ من يدرس اللغة ينظر إليه على أنه أرقى مدرس للمادّة، وأحسستُ كفايتي في تدريس القواعد، حتى كان من غروري أني أُخطّئ الكتب المدرسية التي قررتها وزارة المعارف، أما في دروس الإنشاء فلم أكن بارعاً، بل كان بعضُ التلاميذ يكتبون خيراً مما أكتب، لأني لم أتمرّن على الكتابة، وكنتُ إذا كتبتُ شيئاً مِلْت إلى السجع، وإنْ لم ألتزمه لغلبة ما حفظتُ من (مقامات بديع الزمان) ورسائله، ورأيتُ من المدرّسين بالمدرسة ما لا عهد لي به، فكأنّهم يمثّلون روايةً غريبة الأحوال، مفككة الفصول، منهم من يُمثّل دور الماكر ذي الناب الأزرق، الذي يُقابلك فيبتسمُ لك، ويُوهمك أنه صديقك، وهو يدسّ الدسائس لك عند ناظر المدرسة، ومنهم من يُمثّل الخبيث المنطوي على نفسه، الحاقد على الدنيا وكل شيء فيها، ومنهم السِّكّير العربيد، الذي يستولي على مال المدرسة، فيصرفه في سكره وعربدته، ثم يُضبط فيطرد، ومنهم فرّاش المدرسة العبد الأسود، الذي تحمرّ عيناه، وتقذفان بالشرر من كثرة ما يتعاطى من البوظة، وكنتُ أمثّل من هذه الأدوار دور المغفل الساذج، الذي لم يعرف الدنيا، ولم يختبر الناس».

وما قاله أحمد أمين عن المجتمع المدرسي منذُ قرابة قرن، لا يزالُ إلى الآن، لأنّ الناس هم الناس، بل إنّ تقدّم وسائل المدنية أوحى للماكرين من المؤامرات ما لا يقف عند حدٍّ، أما أنّ الأستاذ كان يمثّل دورَ المغفل الساذج، فهذا ما لا أرتضيه، لأنّه كان يمثّل دورَ المسالم

---

(١) حياتي، ص٧٦.

الذي ينأى عن الاحتكاكات والمنافسات، ولو كان مغفلاً لأوقعه هؤلاء الأشرار في حبائلهم المحكمة التي لا يفلت منها صيدٌ!.

وقد اعترف الأستاذ أنه لقي زميلين في الأزهر يشكوان من صعوبة الدروس، وعدم فهمها، إذ كانت تُلقى في أسلوبٍ جافٍ يميل إلى الاعتراضات اللفظية، وحلّ الضمائر، ورجوعها إلى الألفاظ المتقدّمة، دون اهتمام بجوهر الموضوع ذاته، فحبّب إليه هذا الزميلان الفاسدان أن يتركوا الدروس، ويذهبوا إلى قهوةٍ مجاورةٍ للعب (القمار) وكانت زلّة لا شكَّ فيها، يقول الأستاذ[1]:

«كنا نصرفُ الساعات نقامر، وأخسرُ أحياناً، فأبيعُ بعض ما معي من متاع، وأبي لا يعلم شيئاً من ذلك (لو كان يعلم) وأساتذتي لا يعلمون من أنا حتى يعلموا إن كنتُ حضرت أو غبتُ، وأذهبُ إلى بيتي مدّعياً أني قضيتُ الوقت كلّه في التحصيل. ولكن تنبه ضميري بعد أشهر، وفهمتُ أن هذه الحال تُؤدي إلى سوء المآل، فتركت صحبتهما والتفتّ إلى دروسي».

وأظنّ مسألة القمار هذه كانت سحابة صيف انقشعت بسرعة، لأنّ الذين عاصروا أحمد أمين في عهد الطلب بالأزهر قد ذكروا ما يدلّ على اجتهاده البالغ، وتحصيله الجيد، فقد كان زميلاً للأستاذ (إبراهيم مصطفى) عميد دار العلوم الأسبق في الدراسة الأزهرية وقد تحدّث الأستاذ إبراهيم عنه بما يدل على أنّه كان قدوةً بين زملائه، وهذا ما رشّحه للنجاح في مسابقة وزارة المعارف، فعُيّن مدرّساً بمدرسة (راتب باشا)، ثم ما رشّحه للالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي في مسابقةٍ عسيرةٍ شاقّة لم يفز فيها

(١) حياتي، ص٦٠.

إلا نوابغُ الطلاب! وإصرارُ (أحمد أمين) على تسجيل هذه الهنة مما يُعطى الموعظة الحسنة بدءاً وخاتمةً، حيثُ أبان ضررَ هذه الهفوة، وسجّل على نفسه القوية النصوح بالعود السريع إلى الطريق المستقيم!.

وذكريات الأستاذ عن مدرسة القضاء ولجنة التأليف والنشر ومجالس القضاء تصلحُ أن تكون تاريخاً اجتماعياً ثقافياً للمدة التي سعدت به، حيث حلّل في كتابه ما اعترضته في مواقفه الكثيرة من عقباتٍ سَلِمَ منها، وما صادفه من نجاح لا شكَّ فيه، لأننا نلمسهُ لمساً دون تزيّد! ولكني أقف من ذلك كله عند حادثتين إحداهما طريفةٌ لذيذة، والأخرى أليمةٌ موجعة.

أما الحادثة الأولى فهي ما صادفه عند ركوبه عربةً مزدحمةً بالناس رجالاً وإناثاً، عربةٌ تجرّها الجياد من الحسين إلى العتبة الخضراء، يقول الأستاذ[1]: «ركبتُها فوجدتُ في ممشاها قُففاً لفلاحاتٍ. ورفعتُ رجلي أتخطّى قفّةً من القُفف، فمسّت سيدةً جالسة تلتفعُ بملاءة لف، وعلى وجهها بُرقعٌ بقصبة، فصاحت بي، وأمطرتني وابلاً من السباب. فغضبتُ وضربتها ضربةً خفيفة بجريدة المؤيد على فمها، أقولُ لها: اسكتي فراعني أنها صوّتت صوتاً مرعباً، ألفت كل من في الشارع، ووقفت العربة، وجاء الناس يتعرّفون الخبر، ونادت البوليس، وصمّمتْ عليه، ودخلنا إلى القسم فسمع المعاون القصة، ورآها بسيطةً. فطلب مني أن أعتذر، فرفضت المرأة قبول العذر، فاضطرّ المعاون أن يحرّر محضراً رسمياً، وأخذ أقوالي وأقوالها، وألحّتْ أن تُحال على طبيب المحافظة، لأنّ بها خدشاً في أنفها فأُحيلت، وخرجتُ مضطرباً خجولاً، إذ كان هذا أول حادثٍ من نوعه، ثم جاءني إعلانٌ من المحكمة، وذهبتُ مع صديقٍ لي

---

(١) حياتي، ص١٦٤.

إلى وكيل النيابة فقال: إنّه حوّل الشكوى إلى المحكمة! وتدخّل صديق كبير حتى انتهى الأمر بعد عُسر شديد».

هذه هي الحادثة الطريفة! أما الحادثة الأليمة حقاً، فهي انقطاع تلاميذه وأصدقائه عنه بعد أن ترك عمادة كلية الآداب! وقد كتب الأستاذ عن شعوره المتألّم صفحاتٍ باكية!! كان الصديقُ الذي يزورهُ كل يوم أثناء العمادة قد وجد مصلحته في أن ينقلب عليه، ويُدبّر المكايد مختلقاً، وينشر الأراجيف، وكان التليفون الذي يدّقه كل ثانية صار لا ينطقُ بمكالمة. وكان البريد المكتظ في الأعياد والمناسبات قد صار خاوياً، يقولُ الأستاذ بعد سردٍ كثير مما يدورُ حول الطبائع[1]: «كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، فحزّ في نفسي ما رأيتُ».

هل أقولُ للأستاذ أحمد أمين: إني كنت عميداً، ولكن ليست لي منزلته، فأين أنا منه؟ وقد عانيتُ ما عاناه تماماً، حتى كأني استمع إليّ، ونقل بقلمه ما حدّثته به! وهي الدنيا!.

هذا بعضُ ما يقال عن هذه الترجمة الرائعة، فهل أفلحتُ في دعوة القارئ إلى مطالعتها؟.

* * *

(١) حياتي، ص٢٨٩.

كتب أخرى

هذه تعريفات بكتب أخرى للدكتور أحمد أمين لا يمتد الحديث فيها امتداد الكتب المذكورة قبل هذا، لأن حجم الكتاب لا يسمح بالإفاضة المشبعة كما أريد، وأبدأ بكتاب:

١ ـ ظهر الإسلام

ظهر في أجزاء أربعة، والجزء الأول أقواها، لأنّه كُتب والأستاذُ ممتَّع بصحة جسمه، وسلامة عينه، وإن كان قد احتاجَ إلى مرانةٍ طويلةٍ كي يواصلَ ما انقطعَ بعد انتهائه من (ضحى الإسلام)، وقد قسّم الكتاب إلى جُزْأيْن، جزءٌ أولٌ يتعلّق بالحياة الاجتماعية في هذه الفترة المضطرمة بالأحداث والانقلابات، فيسرد الكثير عن سُكان المملكة الإسلامية من عربٍ وفرسٍ وتُركٍ ورومٍ وكردٍ ومذاهبهم الدينية المختلفة، وقد تعددت ما بين مسلمين ويهود ونصارى وصابئة.

فإذا أُحكم ذلك انتقل إلى تصوير أهمّ المظاهر الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر، فوضّح انقسامَ الدولة إلى عدّة ممالك، وأثر هذا الانقسام في تنمية الحركتين الأدبيّة والعلميّة، ثم ما تَبِع ذلك من مظاهر التّرف لدى قلّة، ومظاهر البؤس لدى الكثرة. مُلْتَفَتاً إلى انهيار المجتمع الأسريّ بانتشار الرقيق، وتنازع أبناء الأب الواحد، وصَدى ذلك كله في مجرى الحياة الاجتماعية.

هذا بعضُ ما شـمله الجزء الأول من الكتـاب، أما الجزءُ الثـاني فخاصٌّ بمراكز الحياة العقلية في هذا العصر، وهي مراكز شتى في مصر والشام والعراق وجنوب فارس، وخراسان، وما وراء النهر، والسّند، وأفغانستان، والمغرب، وفي كلِّ مركزٍ من هذه المراكز حديثٌ دقيقٌ عن الحركة الدينية، والحركة اللغوية، والحركة الأدبية، ورجالها، وأظهر مؤلفاتهم، وأثرهم في سير الثقافة الإسلامية، كما يشمل الحديث أشياء هامة عن مدن الثقافة، والدول السياسية التي رعت هذه الثقافة، والقائمين عليها في كلّ صقع، وما أكثرهم حين تعددت الثورات، وقام خَلَفٌ وراء سلف.

وجاء الجزء الثالث من الظهر خاصّاً بالأندلس، حيثُ أفاضَ البحّاثة في الحديث عن العرب منذُ فتحوا البلاد إلى خروجهم منها. وكان اهتمامُه كعهده بالحركات الدينية واللغوية والنحوية والأدبية والفلسفية والتاريخية والفنية.

وقد انتقل الأستاذ الكبير إلى جوار ربه قبل أن يظهر الجزء الرابع من الظهر إلى الوجود، حيث ترك الفقيد أوراقه في أدراج مكتبه، وعهدت أسرتُه الحريصةُ على ذيوع فضله إلى تلميذه الدكتور (أحمد فؤاد الأهواني) كي يعمل على نشر الأوراق المخطوطة وفق ما يراه في ترتيبها، وهي مهمةٌ قام بها الدكتور الأهواني مشكوراً دُون تردد، وقد قال بعض ما فعل: «إنّ الأصل لم يكنْ بخطّ أحمد أمين، فقد جرت عادتُه في أواخر حياته بعد أن أصيب ببصره، أن يُملي، وكان قد دفع ما كتب إلى شخْصٍ يكتبه على الآلة الكاتبة. فبلغ عدد صفحات الكتاب (١٧٩) صفحة، ويظهر أنّ الوقت لم يتسع للنظر في هذه الأصول ومراجعتها وتعديل ما يريد أن يعدّل فيها،

وإضافة ما يراه لازماً بعد القراءة الأخيرة. ولم يكنْ في الأصل عنوانٌ للفقرات، إذ كان يترك محلها بياضاً ليضع العنوان المناسب عند الطبع، أو عند المراجعة قبل دفع الأصول إلى المطبعة، وقد قمت بوضع العناوين التي تستخلص من روح الموضوع».

والحق أن الدكتور الأهواني، قد قام بالمهمة قياماً حميداً، فأتاح لهذه الصفحات أن ترى النور على نحو كريم، وقد توسّع في الفهرس بعض الشيء، فذكر العناصر الجزئية للموضوع الكلي، وحدد أرقامها على غير المتبع من قبل، وتدورُ أبواب الجزء الرابع على الحديث عن المعتزلة، وأهل السنّة والشيعة والصوفية، ثم ختم بتذييل عن الحركات العلمية والدينية.

٢ ـ يوم الإسلام

يتحدَّث الأستاذ أحمد أمين عن هذا الكتاب بما يغني عن كل قول حيث يقول:

هذا الكتاب: أردت فيه أن أبيّن أصول الإسلام، وما حدث له من أحداث، أفادته أحياناً، وأضرته أحياناً، وأبين كيف كان يعامل غيره من أهل الأديان أيام عزّه وسطوته، وكيف يُعامله غيرهُ أيام ضعفه ومحنته، فكان من ذلك هذا الكتاب.

المتحدثُ فيه أكثر ما يكون على معلوماتي السابقة، وقليلاً منه على قراءتي الحاضرة... وأهمّ غرض منه شيئان:

الأول: أن نتبيّن منه الإسلامَ في جوهره وأصوله، وكيف كان؟

والثاني: أنّ كثيراً من زعماء الإسلام أتْعبوا أنفسهم في بيان ضعف

المسلمين، فرأيت أنّ خيرَ وسيلةٍ لمعرفة أسباب هذا الضعف، الرجوعُ إلى التاريخ كله، فهو الذي يبين لنا ما حدث مما سبّب ضعفه، وبذلك نقف على الأسباب الحقيقية حتى يمكن من يريد الإصلاح أن يعرف كيف يصلح.

وقد كشف الأستاذ في إيضاح الغرض الأول من أركان الإسلام والوحدانية والإيمان بالقضاء والقدر، ومشروعية الجهاد في الإسلام والرق والمواريث والعبادات، ونظام الحكم في الإسلام، والاجتهاد في الدين، وقد أطال في حديث الاجتهاد إطالة كثيرة، وجعل يكرّره في كثير من الصفحات، وهذا جيّدٌ مقبول، لأنّ إيصاد باب الاجتهاد كان مدعاةَ التخلفِ في العالم الإسلامي، ولا سبيل إلى الارتقاء المنشود إلا بفتح باب الاجتهاد في هذا العصر، وقد فُتح فعلاً على يد الأستاذ الإمام محمد عبده وتلاميذه المستنيرين.

أما الغرضُ الثاني فجاء الكلام عنه في تسلسل الحديث عن المملكة الإسلامية، منذ أن كانت عربية موحّدة، إلى أن افترق المسلمون طرائق قدداً لخلافات فرّقت الشمل، وأكثرها خلافات مغرضة، تتخذ الدين شعاراً لتحقيق المطامع والأهواء!.

وقد أحسّ الأستاذُ أنّه في آخر عهده بالتأليف، فجعل الصراحة ديدناً له، وقسا على أناسٍ كثيرين، قسوةً يتضح في كثير منها أنَّ الحقَّ في جانبه.

وتتركُ هذه القسوة الخاصة بأبناء الأمة الإسلامية إلى الطغيان الظالم الذي قامتْ به أوروبة ضد الإسلام والمسلمين على مدى قرون مظلمة، عادت بالهوان والتفكك والانحلال على الأمة الإسلامية، وتطلبت العلاج الناجعَ، وهذا ما قام به المصلحون من قبلُ، وما رآه الأستاذ أحمد أمين داعياً إلى تكرار الطرْقِ المُلحِّ لينتبه النائم، ويفيق السكران.

٣ ـ قاموس العادات والتقاليد المصرية[١]

اهتمّ الأستاذ أحمد أمين بالحياة المصرية اهتماماً ظهر أثره في أجزاء (فيض الخاطر) حيث رصد بقلمه السيّال ظواهر شعبية كثيرة، وحلّلها، وخرج بنتائج صائبة، تجعله في طليعة الكُتّاب الاجتماعيين. وكان في مؤلفاته العلمية قد أخذ على المؤرخين العرب أنَّ أكثرهم لا يهتم بدراسة الشعب فيما كتبه من فصول التاريخ، إذ آثر هؤلاء الحديثَ عن الملوك والرؤساء والوزراء، وفيهم من جعل تاريخه يدورُ على أسماء الحاكمين وحدهم، فهو يبدأ بذكر معاوية ثم يزيد ثم مروان ثم عبد الملك وهكذا حتى ينتهي إلى سقوط الدولة الأموية، فإذا اتجه إلى تاريخ الدولة العباسية بدأ بالسفاح والمنصور وهكذا، وإذا اتجه إلى الأحوال الاجتماعية كان اتجاهه عرضاً يُذكر في سياق الحديث عن الحاكم.

لذلك جعل الأستاذ أحمد أمين لا يكتفي بمقالات (فيض الخاطر) بل اتّجه إلى تسجيل العادات والتقاليد والتعابير المصرية في عهده بقاموسٍ كبيرٍ، كان مصدر نفع مؤكد للباحثين، وأول داعٍ ساقه إلى ذلك أنَّ الإذاعة المصرية طلبت منه عدّة أحاديث يتّجه فيها كيفَ شاء. فرأى أنْ يخصّ العادات الاجتماعية بِنُبذٍ دقيقة تكشفُ عن مضمونها الدقيق، وتحاول تعليل ظواهرها، وما زال يبحث ويجتهد حتى بعد انقطاع هذه الأحاديث الإذاعية لسبب ما، ليكمّل ما يرتضيه من الشمول والجمع اللَّذَيْن يُشبعان رغبة القارئ، وقد قال الأستاذ في مقدمة كتابه:

«رأيت صعوباتٍ كثيرة في هذا الموضوع، فلم أكنْ اعتمدُ إلاّ على الذاكرة غالباً، وساعدني أني تربيتُ في حارة بلديّة تكثر فيها العادات

---

(١) مقدمة (قاموس العادات)، ص١، ب.

والتقاليد، وقد منحني الله ذاكرةً طيبة، حفظتْ ما كان يجري أمامها حتى مع تقدّم السن، فأخذتُ أستذكر ما مضى، وكلّما ذكرتُ عادة أو كلمة قيدتُها من غير ترتيب، حتى إذا تمتْ اجتهدتُ في ترتيبها. . . ثم رأيت أنّ كلمة دائرة معارف لا تناسب هذا الكتاب، فتواضعْتُ وسمّيتُه (قاموس العادات، والتقاليد المصرية). . وقد أقْدمتُ عليه وأنا وَجِلٌ، لأنه موضوعٌ جديد، أظنّ أني لم أسبق إليه، والجديدُ عادةً غريب، وأنا اعتقدُ أنه فَتحُ بابٍ يكمّله من يأتي بعدي.

وقد دعاني إلى تأليفه ما رأيت من عادات وتقاليد وتعابير كانتْ حيّة في زمنها، ثم أخذتْ تندثر، حتى إنّ أولادي قلَّ أن يعرفوا عنها شيئاً، فالمؤرخ في حاجة شديدة إلى تدْوينها والانتفاع بها.

ولأول مرة أقرأ قاموساً من القواميس قراءةً متتابعةً في لذّةٍ بالغةٍ دون سأم، لأنّ القواميس التي نعهدُها لا نقرؤها هكذا، ولكنْ تأتي المناسبة التي تتطلب معنى كلمة أو حديث مدينة أو موضع، فنكشف عن المراد، وننظر في الكتاب.

أما قاموس أحمد أمين فكلّه طرائف ونوادر ذات عظات ومثُل، وفيه الأقاصيص التي لم يدونها سواه! ففي قراءته متعة القراءة في قصةٍ طويلة متعددة الفصول، ذات أحداثٍ جذابةٍ، وشخصياتٍ مشوقة، ووصفٍ لمناظر شتى، وقد وقفت عند قول (أحمد أمين) : إنّ أحداً لم يسبقه، وذلك حق بالنسبة إلى طريقة تأليف الكتاب وتبويبه، لأنّ العلامة (أحمد تيمور) قد كتب جزأين رائعين عن الكنايات العامية والأمثال العاميّة، فابدعَ فيها إبداعاً كثيراً.

كما أرى أنّ الأستاذ أحمد أمين انتفع انتفاعاً ملموساً بما ذكره

المستشـرق الإنكليزي الأستاذ (إدوار وليام لين) في كتابه (المصريـون المحدثون، عاداتهم وشمائلهم)، حيث جاء بأشياء كثيرة قرأها أحمد أمين، واختزنتْ في ذاكرتـه، ثم حاكاها فيما سـطّر، وقد أشـار إليه في مواضع من كتابه، مع اختلاف الطريقة في الرصد والتبويب، فما ذكره أحمد أمين عن السّحرةَ والشعوذة والسقائين والمرأة والأحلام والأولياء والنذور، والتجار والصنّـاع، له صلة وثيقة بما كتبه الأسـتاذ (لين)، ومن الحق أن الأستاذ لم يقْتصرْ على ما جاء بكتاب (المصريون المحدثون) بل اتّسع اتّساعاً مشبعاً مُمتعاً، ولكنّه في الواقع مرجعٌ هام من مراجعه، وقد ينقل الكاتب عن مرجع دون أن يلتفت إليه، إذ يقرأ كلامه منذ زمن بعيد، فيرسّخ في ذاكرته، ويتحوّل جزءاً من كيانه، ثم يكتب عمّا شاهد، فيرجع إلى ذاكرته الحافلة بالقراءات السابقة وينقل عنها ناسياً مصدره الأول، وهذا أمر مشاهد لدى كثير من الباحثين.

وفي القامـوس موضوعاتٌ يصلحُ الـواحد منها لأن يكون مقالـةً مستقلةً، إذ تتسع المادة أمام الكاتب فيفيض في الحديث، وكأنه يؤلّف فصلاً علميـاً، ومثل ذلك ما كتبـه أحمد أمين عن (النكتـة) و(الأمثال)، و(الأزهر) و(أبي زيد الهلالي)، و(الحدوتة) و(الحرباء) وغيرها مع خرافة نادرة، وسهولة محببة في التعبير، وإذا كانت السهولة الميسرة من سمات أحمد أمين في مؤلّفاته العلمية، فإنّها في هذا الكتاب قد زادتْ سـلامةً وعذوبةً حتى ينسى القارئ أنّه يقرأ، ويتخيل أنّه يستمع في مجلس أُنسٍ.

وأذكر أنّ الأستاذ أحمد أمين قد قال في مقدمة القاموس: «قد يُؤخذ عليَّ أن في نشر هذه الأشياء تشهيراً بالمصريين، وحطاً من شأنهم، لأنّ أكثرها خرافات وأوهام، وانتشار الثقافة بين المصريين وخصوصاً النساء أزال كثيراً منها، ولكنّ عُذري في ذلك أنها تسـجيلٌ لما كان، وحمدٌ لله

على أخذهـا في الزوال، والحقّ أحق أن يقال من غير اعتبـار للومِ لائم، أو اتهام متهم، فـإذا رأى راءٍ أنّ في هذا عيباً وتشـهيراً، رأيت أنّ في هذا مفخرةً للمصريين إذا نظرنا إلى أين كانوا وإلى أين وصلوا؟ فهذا الكتاب يمثّل مرحلةً زالت أو هي على وشك أن تزول، كما يُمثل أمّةً طفرت إلى استعمال العقل، بعد الإغراق في الخيالات والأوهام!.

وهذا كلّه حق، ولكنّي ألحظ أنّ الأستاذ أحمد أمين كان مثل عتيد كاتب السيئات في أكثر أحواله، ولم يكن كرقيب كاتب الحسنات، إذ من العادات المصرية حينئذ ما كان يُحمد مثل صلة الأرحام، والعطف على الفقير، وبناء المساجد والأسبلة، وتشجيع الكتاتيب التي تعمل على حفظ القرآن، والتكافل التام عند وقوع الدواهي مثل الحرائق والسيول، وكثيرٌ من هذه المحامد التي يجب أن تُسـجَّل جوار هذه النقائص، وقد أشـار الأسـتاذ إلى بعضها باقتضابٍ، ولكنّـه لم يبلغ في ذلـك مبلغ الإنصاف المنتظر. . .

والكتـاب ـ بعد ذلـك كله ـ سـجلٌ حافلٌ بالأحوال الاجتماعيـة، والتقاليد الشعبية في مدى عصرٍ ممتدٍ كاد أن يرحلَ ليعقبه صبحٌ جديدٌ.

٤ ـ النقد الأدبي

نُشر هذا الكتاب بعد تأليفه بربع قرن، إذ بدأ المؤلّف إملاءه على الطلاب من سنة ١٩٢٦م، ثم رأى أن يخرجَ إلى النور سنة ١٩٥١م، وفي هذا الأمد ظهرتْ كُتبٌ جامعيّة تتحدّثُ عن موضوعات النقد الأدبي راجعةً إلى مسودات المؤلف، لأنّ أصحابها زملاؤه بالكلية، ولكنّهم أضافوا الكثير، وحلّلوا وعلّلوا على نطاقٍ أوسع، فأصبح من يطالع الكتاب عند

نشـره من غير طلبة الأسـتاذ، يظنون أنه تكرارٌ كسواه، مع أنّه سابقٌ غيرُ لاحق، وتلك ملاحظة يجب إعلانها.

وإذا كان كتاب النقد في جزأين، يتحدّث أولهما عن قضايا النقد ومشكلاته، ويتحدث الثاني عن تاريخ النقد غرباً وشرقاً من خلال أبطاله، فإنّ الأستاذ المؤلف كان حاضراً في كلِّ قضية يتحدث عنها، فهو لا يترك موضوعاً دون أن يُشبّعه برأيه الخاص، ودون أن يأخذ جانباً ينحازُ إليه، ويترافع في تـأييده، كما يترافع المحامي في محكمته موضحاً حيثياتـه القانونية.

وقد أخذ عليه الدكتور عز الدين إسماعيل[1] أنه لم يلتفت إلى النقد اليوناني والنقد الروماني مكتفياً بالعصور الحديثة والوسطى، وكان عليه أن يبدأ بالأصل، كما أنه في بعض الأحيان يؤرخ لشخصيات النقّاد أكثر مما يؤرخ الأفكار الأدبية ذاتها، وهما ملاحظتان جيّدتان.

وقد لاحظتُ أنّ الباب الذي كتبه في آخر الجزأ الثاني من الكتاب عن النقد في الأدب العربي، جاء موجزاً في أوّله بحيث يحتاج إلى بسطٍ أوفى، أما في آخره حين تحدّث عن النقد المعاصر فلم يكن ما كتبه موجزاً فحسب، بل كان مُبْتسراً، حتى أشفقَ أن أقول: إنّه تلخيصٌ لطالبٍ في المدرسة الثانوية، وإلا فكيف يتحدثُ المؤلف عن الشيخ حسين المرصفي والمازني والعقاد والسحرّتي وطه والرافعي ومحمد مندور في صفحتين اثنتين فقط! يخيّل لي أنّ المؤلف أملى هذا الفصل على كاتبه دون تحضير ما، ليوفى بأدنى قصد.

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٧١١)، تاريخ ١١/ ٨/ ١٩٥٢.

٥ ـ قصّة الأدب في العالم

ألّف هذا الكتاب في أربعة أجزاء بالاشتراك مع الدكتور زكي نجيب محمود، ليتحدث عن الأدب في العالم شرقه وغربه، قديمه وحديثه! ومحاولة التاريخ لأدب العالم كلّه محاولةٌ جريئةٌ، ولكنّها كانت ضرورة للقارئ العربي، الذي لا يجد بين يديه ما يهديه إلى اكتشاف هذه الآفاق. وقد كان الأستاذ أحمد أمين صادقاً كلَّ الصدق حين قال في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب:

«ومع هذا فمحالٌ أن يخلو هذا المشروع الضخم من خطأٍبل أخطاء، فقد نكون أجملنا حيث يجب التفصيل، أو فصّلنا حيث يجب الإجمال، أو اخترنا ما غيرُه خيرٌ منه، أو اعتمدْنا في الترجمة على نص إنكليزي، والنصّ اليوناني في الأصل يُخالفه بعض المخالفة أو نحو ذلك، ولكنّ هذا مدى جهدنا، وهو ما استطعْنا، ولنا الشرف أن نسمع نقد الناقد، والمرشد إلى الخطأ، والموجّه إلى الصواب» أما أهمية هذا الكتاب فقد تحدث عنها بإشباع وإمتاع الأستاذ سيد قطب في مقالٍ ضافٍ قال فيه[1]:

(قصة الأدب في العالم) بالقياس إلى القارئ العربي عملٌ بالغُ القيمة، فهذا القارئ في حاجةٍ إلى أن يخرج من عزلته التي عاش فيها قرابة ألف عام، بعد عصر التّرجمة العباسي، وأن يجوس خلال الأدب العالمي، فينظر هناك إلى الأدب العربي، أيْن يقفُ، وما اتجاهُه؟ وما مستواه؟ وما خصائصه؟.

وهذا القارئ في حاجة إلى أن ينظرَ إلى الأدب العالمي كيف يتفاعل

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٣١٣)، تاريخ ٢٧/ ١٢/ ١٩٤٤م.

بعضه مع بعض؟ وكيف يتأثر بعضُه ببعض؟ وكيف يلتقي الإنسان بالإنسان في مشارق الأرض ومغاربها؟ وكيف يفترق الإنسان هنا وهناك؟ فيرحُبُ صدرُه لتلقي النقائض والأضداد، وتنفسحُ نفسُه لتلاقي الأكفاء والأنداد.

وهذا القارئ في حاجة إلى شيء جديد يجده في هذا الكتاب، في حاجة إلى فهم جديد لمعنى التجديد الفني، فقد وقرَ في أذهان الكثيرين منا أنّ التجديد الفنيّ معناه الابتكار المطلق، في أصل الأحاسيس وفي طريقة الأداء، فإذا استفاد لاحقٌ من سابق فسرعانَ ما نصيح به: سارق، مكرِّر، لم يأت بجديد.

ففي قصّة الأدب العربي يجد القارئ شيئاً كثيراً عن تأثر فرجيل الروماني في (الإنيادة) بهوميروس الإغريقي في (الإلياذة) و(الأوديسة)، وتأثّر ولغرام الألماني في (برسغال) بكرتيان دي تروا الفرنسي في (الوفاء المقدس)، ونرى كيف أنّ قصّة (ترستان) الألمانية لجو تفريد هي فرعٌ من قصة آرثر الإنكليزية وهكذا.

فالتجديد لا يعني حتماً ابتكار الموضوع، فقد يتحقق بالتجديد في أوضاعه واختلاف السمات النفسيّة التي يصوّرها جيلاً بعد جيل.

خطوة واحدة إلى الأمام في أيّ فنٍّ كفيلةٌ بأن يعدّ صاحبها من المجددين، وهذا تسامح جميل يشجع المجددين المترددين.

وقد استعان المؤلفان بالدكتورَيْن (عبد الوهاب عزام) و(يحيى الخشاب) في الحديث عن تاريخ الأدب الفارسي حين كتبا هذا التاريخ بدقة وإيجاز.

٦ ـ قصة الفلسفة

حين كان الأستاذ أحمد أمين مدرّساً بمدرسة القضاء الشرعي، درَس أصول الأخلاق على أستاذه (عاطف بركات) فحبّب إليه دراسة الفلسفة بشتّى فروعها لا في ناحية الأخلاق فقط، وأكبَّ الأستاذ على الكتب المترجمة ينهلُ من حياضها، ثم رأى بعد أن تعلّم الإنكليزية أن يُترجمَ كتاباً في الفلسفة ينتفع به قراء العربية، وهي مهمةٌ شاقة لمنْ تعلم اللغة منذ عهد قريب، لأن ترجمة المعاني الفلسفية لا تحتاج إلى دارس اللغة الإنكليزية فحسب، بل إلى من تعمّق في أدقّ المصطلحات الفلسفية، ليضع الأفكار الفلسفية وضْعها الصحيح.

وقد وُفق الأستاذ في ما حاوله، غير أنّ رغبته الإصلاحية في ذيوع الفلسفة بين قراء العربية دفعته بالاشتراك مع الدكتور زكي نجيب محمود إلى تأليف كتابيْن في الفلسفة، يتحدّثُ أولهما عن الفلسفة القديمة، وثانيهما عن الفلسفة الحديثة، وقد تمَّ ذلك، وسعد قارئو العربيّة بتاريخٍ مبسّط للفلسفة يشرحُ حقائقها في إيجاز واضح، ويلمُّ بتطور المذاهب إلماماً لا يحرمه من ثمار العقول الناضجة في هذا الحقل الخصيب.

وقد ألّف الأستاذ الكبير (يوسف كرم) كُتُباً رائعة في تاريخ الفلسفتين القديمة والحديثة، وقرأتُ لكاتبٍ فاضلٍ موازنة بين اتجاه أحمد أمين وزميله، واتجاه الأستاذ يوسف كرم، فوجدتُ أنّ الناقد الفاضل قد أخطأ حين قارن اتجاهاً متعمّقاً لمتخصص دؤوب هو الأستاذ يوسف كرم باتجاهٍ تثقيفيٍّ يُريد صاحباه أن يُقدّما مائدةً متواضعة لمن لا يعرف من قرّاء اللغة العربية شيئاً عن الفلسفة الأوروبيّة أصلاً، ونحنُ نحكم على الكتاب بهدفه واتجاهه، ولا نقارنُ به إلا كتاباً من منحاه! أمّا أن نقرن كتاباً للتخصص بكتاب للتثقيف فهذا هو الجور بعينه.

وقد كتب الأستاذ الأهواني مقالاً جيداً من أحمد أمين الفيلسوف حلّل فيه اتجاهه الفلسفي بما لا مزيد عليه وقال في خاتمته[1]: «إنّ خصال أحمد أمين الفلسفية أدّت إلى إعلان نتائج عظيمة الخطر في حياتنا المعاصرة تختص بالعقل والدين واللغة والعلم والاجتماع والأدب، وجملة ما يريد من هذه الأمور كلها هو اطّراح التقاليد الثقيلة المعطلة للتقدم والرقي، والنظر بحريّة فكر في كل ناحية من نواحي الحياة، فلا بد في العقل من تحليله، ومعرفة حُدوده، وبيان الأصول التي يجري عليها الفكر السليم، والتزام النزعة الواقعية، ثم تطبيق هذا العقل على مظاهر الحياة المختلفة، حتى يجري السلوك على أساس من العقل».

وقد تعرّض الدكتور عزام إلى إيضاح وجهة نظر المؤلّفيْن الفاضليْن في كتابيْهما عن الفلسفة فقال عن الجزء الأول[2]:

«أراد المُصنفان أن يَعْرضا على القارئ العربي الذي لا علمَ له بالفلسفة اليونانية: قصّة نشأتها وتطورها في إيجازٍ واتضاح، وتسهيل وتيسير، وبُعد عن التعمّق والتفصيل، والتقصّي في البحث، وقد تمَّ لهما ما أرادا، فجاء الكتاب كما ابْتغيا قصةً يسيرة شائقة، كفيلة بتقريب الفلسفة اليونانية للمبتدئين، ولا يحتاجُ الناقد إلى تبين هذا، فكلّ صفحة من الكتاب شاهدة، إذ يبدأ المصنفان كل فصل ببيان ما يريدان، حتى إذا بلغا ما أرادا أجملا ما قدَّما، فإذا بدأ الفصل التالي ذكّرا القارئ بما قدّماه، حتى إذا جاوزَ عهداً من عهود الفلسفة، إلى عهد آخر، وقفا بالقارئ يلفتانه إلى ما أوضحا من قبل، ليتعرّف فرق ما بينه وبين ما يستقبله في العهد التالي وهلمّ جراً».

---

(١) أحمد أمين، بقلم أصدقائه، ص٣٥.

(٢) الرسالة ـ العدد (٩٨)، تاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٣٥م.

وما قاله الدكتور عزام عن قصة الفلسفة اليونانية ينطبق تماماً على ما فعلا في الكتاب الثاني (قصة الفلسفة الحديثة) وقد يذكرُ القارئ أنّي أشرتُ إلى رأي الأستاذ أحمد أمين في أصول الفلسفة اليونانية ومناقشة الدكتور عزام إياه، فلا أعيد.

٧ ـ المهدي والمهدوية

قصة المهدي من القصص التي بالغ في ترديدها المستشرقون، وتجرّأ بعضُهم فعدّها أصلاً من أصول الإسلام، وقد ذهبوا وجهات شتى تفترقُ جهاتٍ كثيرة، لتلتقي عند شيءٍ واحدٍ هو أنّ حكاية المهدي المنتظر ذاتُ جذورٍ صحيحة في التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية معاً.

لذلك كان حديثُ أحمد أمين عن (المهدي والمهدوية) كاشفاً لزُيوفٍ كثيرة اعتنقها القوم، وكأنّها حق لا مرية فيه، وقد اتّبع المنهج التاريخي، فشرح فكرةَ المهدية منذ نشأتها حتّى هذا العصر، وأوضح العوامل الباعثة على ترسيخها، وأبان عن الدول التي قامتْ عليها كدولة الموحدين، ومن يسمّون العبيديّين والقرامطة والحشاشين والبابيّين والبهائيّين وغيرهم حتى وصل إلى مهدي السودان، ولم يكن الأستاذ متحيزاً لغير الحق، كما يراهُ، وكما يراه المحايدون، الذين يقرؤون التاريخ على وجهه الصحيح.

ومن فضائل الأستاذ أحمد أمين أنّه فسحَ مجلة (الثقافة)[1] التي يُشرف عليها، لنقدٍ هادف كتبه الأستاذ الفاضل سعد محمد حسن مصحِّحاً

---

(١) مجلة الثقافة ـ العددان (٧٦٤ ـ ٧٦٧)، تاريخ ١٧ سبتمبر، ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١م.

بعضَ الأخطاء التي وردتْ في الكتاب، فقد ردّ على المؤلف قولَه: «إن المختار الثقفي أول من أشاع فكرة المهدية»، حيثُ أرجعها إلى عصر الخلافة الأول، إذ إنّ ابن السوداء جهر بخلق هذه الفكرة، وكأنها تأييد للإمام علي، ولكنّ أمير المؤمنين كرم الله وجهه هدّده بالقتل، ونفاه بعد وساطة بعض المعتدلين، كما عارضه في أمور تتعلقُ بالفاطميّين واحتوائهم للفكرة.

ومن الجديد نَفْيُ الأستاذ سعد محمد حسن ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين من أنّ ثورة الزنّج كانت مُعتصمةً بفكرة المهدي، لأن صاحبها الخبيث اصطنع لنفسه نسباً ينتهي إلى علي بن أبي طالب، فهي دعوة شيعية لا مهدية.

كما أجمل الأستاذ أحمد أمين حديثَ القرامطة إجمالاً يحتاج إلى بسطٍ، لأنّ القرامطة هم الذين أكّدوا فكرة المهدي المنتظر، فهم أولى بتحليل بذورهم الفكرية التي نمتْ فيما بعدُ في عقول لاحقة.

كذلك ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنّ ثورة (البساسيري) قامت على عقيدة المهدية، وهو ما نفاه الناقد والحق معه، وكذلك لم تكن البابية ذات اتصال بفكرة المهدي، ولكنها تتصل بالعلوية.

ويخيّل إليّ أنّ الأستاذ أحمد أمين قد جعل كلّ شيعيٍّ مهديّاً، ولعلّ له ما يبرّر ذلك، ولكنّه لم يوضحه، فالخلاف نشأ عن مدى اتصال المهديّة بالشيعة؟.

وقد قال الأستاذ سعد محمد حسن في خاتمة بحثه: «هذه مآخذ وملاحظات أبديتُها على كتاب أحمد أمين، ونشرتها في مجلة أحمد أمين لأعطيك بذلك صورةً واضحةَ المعالم لخُلق الرجل وشخصيته في عصرٍ

يعجُّ بالفوضى والتهريج والرياء والنفاق، حتى في ميدان العلم الذي اكتسحتْه الديماغوجية، وانحطَّ مستواه في الأوساط الجامعية، ولستُ مبالغاً إذا حدثتُك أنّ أحمد أمين ونفراً من رفاقه يعيشون اليوم وحدهم».

٨ ـ هارون الرشيد

هذا الكتاب موجز نشرتُه دار الهلال في سلسلة (كتاب الهلال)، وقد طلبت الدارُ من الأستاذ أحمد أمين أن يكتب عن (هارون الرشيد) فاغتبطَ بذلك وعلّل لغبطته بقوله[١]:

«إنّني أحبه، وربما كان سبب حبّي له أنّه رجلٌ عاطفي ذوّاق، يخضع للمؤثرات الوقتية، فيصلي مئة ركعة كل يوم، ويحجّ ماشياً، ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء، ويحدّثه أبو العتاهية حديث الزهد فيبكي حتى تخضلّ لحيته، ويقول له ابن مريم نكتةً فيضحك حتى يستلقي على قفاه».

والكتاب ـ على إيجازه ـ يتحدّث عن ميلاد الدولة العباسية، وعن أبّهة الدولة في عصر الرشيد، والنظام الاجتماعي في هذا العصر، وعن بغداد عروس الأقطار الإسلامية، وعن الأدب والأدباء في عهد الرشيد، وعن مأساة البرامكة، وعن شارلمان والرشيد، ونهاية الرشيد وغيرها، وهو من السهولة بحيث يُقرأُ في مجلس واحد متصلٍ لمن لديه شغفٌ ببحوث التاريخ.

وكعادتي أشير إلى بعض ما وجّه للكتاب من نقد، فقد كتبَ الأستاذ

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٥.

(نقولا الحداد) نقداً وجهه للأستاذ أحمد أمين في خطاب نشره بمجلة (الثقافة)[1] قال فيه:

«ولقد لفت نظري دفاعُك عن أخطائه، وفحوى الدفاع أنّ عذره في ظروفِ عصره التي اقتضت تلك الأخطاء، ونحن نعلم أنّ الحق والصواب عنصران أدبيان مطلقان في كلِّ زمان ومكان، فلا شأن للبيئة ولا للظروف فيهما، فالخطأُ خطأٌ في أي زمان.

كما أنك لم تدافع عن جريمة الرشيد الكبرى في قتل أخته العباسة وولديها، في حين أنّه هو الذي أمر بزواجها من جعفر، وأخذ عليه عهداً ألاّ يمسّها، على حين أنّ مساسها تُوجبُه الطبيعة البشرية، وتحلّله الشرائع السماوية، فلا حرج في أن يجتمع زوجان شرعيان بمقتضى الطبع، وبمقتضى الشرع، وهل كان يخفي على هارون اجتماعها سرّاً، وإنجاب ولدين».

وقد سارع الأستاذ أحمد بالرد على هذين المأخذين فقال وقد بدأ بالمأخذ الثاني[2]:

أمّا قتلُ الرشيد للعباسة، فلا أذكر أنّي نسبتُه للرشيد، ولا أذكر أني قرأته في كتاب محترم، وكلُّ ما أذكره أني ذكرتُ ما يقوله بعض المؤرخين من أنّ الرشيد عقد لجعفر على عبّاسة، ثم أنسلها جعفر ولدين قتلهما الرشيد، وقد ذكرت أنّ هذا العقد لا غبار عليه، فجعفر البرمكي كفءٌ للعباسة، ولو تخير الرشيد لأخته ما اختار خيراً من جعفر، ولُمْته طويلاً

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٦٦٢)، تاريخ ٣/ ٩/ ١٩٥١م.
(٢) المرجع السابق ـ العدد (٦٦٣)، تاريخ ١٠/ ٩/ ١٩٥١م.

على التنكيل بالبرامكة، وخصوصاً تنكيله بابني جعفر، وليس لهما ذنبٌ يؤاخذان عليه، وقلت: «إنّ العباسة معذورة في الاتصال بجعفر، فهي زوجة شرعية له، وأتحدّى الأستاذ نقولا في دعواه أني قلتُ: «إن الرشيد قد قتل العباسة، ثم لم ألمه على ذلك».

ولعلّ مما يتصل بهذا الموضوع أنْ أذكر أنّ كثيراً من محققي المؤرخين ذهبوا إلى أنّ قصة العباسة أكذوبة من ألفها إلى يائها، ولم تكن هناك أخت للرشيد تُعرف بالعباسية، ولهم أدلّتهم المعقولة!

وما انتشرت هذه الأسطورة إلا بفعل الاستهواء، وللأستاذ الكبير الشيخ طنطاوي جوهري كتاب ينحو هذا النحو.

أما المأخذ الأول فقد قال عنه أحمد أمين ما خلاصته:

«إنّه يوافقه على أنّ الحق والباطل حقائق مجردة في كلِّ زمان ومكان لا يتغيران بتغير الأشخاص، ولكنّي أخالفه في مؤاخذة الناس عليهما مهما تغيّرت البيئة، فالمؤاخذة إنّما تكونُ بمقدار تقدير الناس للحق والباطل وفهمهما.

٩ - إلى ولدي

أما ولده فطالبٌ يتعلّم في إنكلترة، وقد طلبت مجلة (الهلال) من الوالد أن يكتبَ للابن المغترب رسائلَ أبويّة تهديه طريقَ النجاح، وتنشرها للقراء، لتكونَ مصدر إفادة لكلِّ طالبٍ مغترب، فاستجاب الدكتور أحمد أمين، ووالى كتابة الرسائل في اهتمام، وواضحٌ من ذلك أنّها رسائل تربوية بالدرجة الأولى، وأنّ الطلابَ المغتربين في بلاد العالم قد صاروا جميعاً أبناء لأحمد أمين يقرؤون ما كتب، وقد قدّر المؤلف تبعة الموقف،

فصدرتْ آراؤه التربوية في طابعها العام هادفةً للإصلاح والتقويم.

ولها نظيرٌ فيما سبق حيث كان الكاتب الكبير الأستاذ (أحمد حافظ عوض) صاحب جريدة (كوكب الشرق) يكتبُ رسائل لابنه في بيروت حين كان طالباً بالجامعة الأمريكية هناك، فجعلَ يتحدث له عن فنون من المسائل العلمية والتربوية تهديه طريقَ النجاح في رسائل أخذت تتوالى، وقد أُعجب الولد برسائل أبيه، فحرص على نشرها للقراء، مع أن والده لم يكنْ هدفه الأول أن تنشر، ونالت قبولاً كبيراً من النقاد والقراء، وطُلبتْ نسخٌ منها من المؤلف نفسه، فأقدم على طبعها للمرة الثانية مصحوبة بآراء كبار الكتاب فيما حوته مثل المنفلوطي والمويلحي والبشري والعقاد وغيرهم، ومجال الموازنة بين الكتابين فسيحٌ لم يريد أن يحلل آراء الكاتبين الكبيرين.

وفي كتاب (إلى ولدي) ظاهرة لم تهيأ في كتاب (من والد إلى ولده) الذي ألفه الأستاذ حافظ عوض، هذه الظاهرة هي أنّ نجلَ الأستاذ أحمد أمين قد عارض أباه برسالةٍ سجّلها مع رسائل أبيه، هذه الرسالة تقرّر أنّ النصائح الكثيرة التي يسوقها أبوه في إحكام، ليست ذات فائدة كبرى، لأنّ البيئة ذاتُ أثر في توجيه المرء وكذلك الوراثة، وما أظن الوالد الكبير يجهل ذلك، ولكنّه يكتب نصائحه مع ذلك، لأنّها لا تعارض ما تتطلبه الوراثة والبيئة من التزامات. وكان الابنُ جريئاً بعضَ الجرأة حين قال لأبيه:

«كلُّ ما أرجوه أن تستمع لكلماتي، كما فتحت قلبي لكلماتك، وكما يجبُ على الحكّام أن يفتحوا قلوبهم لكلمات الشعوب، حتى تتلاشى الدكتاتوريات البغيضة، ويصبحُ للشعب حرية الكلام والتعبير عن رأيه» ثم يزيد فيقول: «ليترك الآباء أبناءهم يجرّبون ويخطئون، فهذا مما يقوي

شخصياتهم، ويزيدهم ثقة بأنفسهم، ويجعلهم جديرين بتحمل المسؤولية الملقاة على أعناقهم».

والولد في هذا يعرف تماماً أن والده يعرف قانون التجربة والخطأ، ويعرف أنّ ثقة الابن في نفسه تدفع إلى النجاح، ولكنّه مع ذلك قد سُرّ حين سمع هذا الكلام من ابنه، وعرف أنّه واعٍ حصيف.

بقي أن أقول: إنّ هذه الرسائل ـ رسائل حافظ عوض وأحمد أمين معاً ـ لم تزدْ على كونها فصولاً تربوية يلقيها مجرب حكيم! وهي إلى الكُتب أقرب منها للرسائل، وكنا نأمل أن نخلص من الموضوعية الصارمة قليلاً، فنتحدّث عن الذاتية حين يحادث المرسِلُ المرسَل إليه كولد شاب ذي عواطف وأحاسيس وآمال وأحلام! وأن يكون للروح الشاعرة نصيبٌ كبير منها، حتى يستمع الابنُ همس النجوى، وينعم بدفء الحنان، ويحس أنّ أباه يُقبله ويحتضنه، لا أنّه مدرّسٌ يلقي النصائح في محاضرة عامة ذات شخوص شتى! وهذا ما افتقدته في رسائل الكاتبيْن الكبيرين، افتقدتُ الهمس الحنون حين وجدتُ التحذير الصارم والترغيب الهادف! وليس لي أن أزيد.

١٠ ـ الصعلكة والفتوة في الإسلام

كتب الأستاذ أحمد أمين في أوائل الثلاثينيات بحثاً دقيقاً تحت عنوان (الفتوة والإسلام) ثم بدا له بعد ربع قرن أن يُضيفَ إليه حديثَ الصعلكة، وجمع المضاف والمضاف إليه في كتابٍ صغيرٍ أصدرته دار المعارف في سلسلة (اقرأ) تحت هذا العنوان، ولا أدري لماذا قدّم الصعلكة في العنوان، مع أنّ حديثه عن الفتوة بالكتاب أوسع وأغزر.

وصعاليكُ العرب في مرتبةٍ سامية عند أحمد أمين، فقد تحدّث عنهم حديثَ المعجب في مقالاته بفيض الخاطر، وخصّ منهم (عروة بن الورد) بمقال جيّد نشره في الجزء الخامس من (فيض الخاطر).

وقد تحدّث عن الصعلوك بمعنييه، معناه الرفيع عند أمثال عروة، ومعناه الوضيع لدى الكسالى الذين يتكفّفون الناس، فقال عن عروة: إنّه كان اشتراكياً عملياً، لا اشتراكياً نظرياً، فقد حمل عبء الفقراء في قبيلته، وآلى ألاّ يستريحَ أو يجدوا كفايتهم، وألّف منهم فرقةً تعمل معه، وتسعى سعيه، وما نالوه فهو للجميع، وجالَ هذا المجال في كتابه الصغير.

أما (حديث الفتوة) فقد امتدّ ليشمل معنى اللفظ وتقلّبه على الأجيال من مدلولٍ إلى مدلول، مستشهداً بالشعر العربي على ما يقول، ومحدّداً معنى الكلمة في الجاهلية، وتطورها في الإسلام، وذاكراً من النصوص التاريخية ما يحدّد معنى الفتوة في تطورها الجديد.

وقد اتّسع المعنى في العصر العباسي اتساعاً يمتد بالفتوة إلى معاني المروءة والنبل والكرم، وما يدور حول بسط الكف وهمة النفس.

وللصوفيين معانٍ في الفتوة، وقد ألفت فيها كتب خاصة، فاختار أحمد أمين من هذه المعاني ما مثّل له، واستشهد بقائليه، ونقل شعراً جميلاً عن (محيي الدين بن عربي) في هذا الباب سجّله في كتاب (الفتوحات المكية).

وانتقل من حديث الفتوة العابدة الذاكرة إلى أصحاب الفروسية المنظمة، وأصحاب الألعاب الرياضية ذات الجهد البدني، والتفوق في مسارح الصيد والطرّد، مقارناً بين فروسية العرب، وفروسية الفرس،

وحديث المؤلف في رأيي يحملُ من العناصر ما يتسع لكتاب مبسوط.

وقد اختار من صفحات ابن بطوطة مشاهد تنطقُ بتطور أصحاب الفتوة إلى مستوى فاق مستوى العرب الأوائل في إغاثة اللهيف، وكرم الضيافة، وبذْل كل ما يُقدر عليه في إسعاد الزائرين، ولهؤلاء البسلاء الكرام شروطٌ دينيةٌ حميدةٌ يلتزمون بها، وهي أرقى ما وضع من شروط التكافل والعفة والشرف والمروءة.

إنّ الذين يتحدثون عن أنظمة الكشافة الحديثة في حاجة إلى أن يعرفوا ما ارتقى إليه الفتيان من شجاعة روح، وهمامة نفس، وعزة دين، وقد بسط ذلك كله كتاب أحمد أمين على إيجازه اللطيف.

١١ - الشرق والغرب

يقول المؤلف إنه دُعي سنة ١٩٤٧م للاشتراك في مؤتمر المائدة المستديرة الذي عُقدَ في لندن لبحث مشكلة فلسطين، وكان لزيارته إذ ذاك أثرٌ في تحديد مشاعره نحو الغرب يقول الكاتب: «وأخذت أشكُّ في صحة الاعتقاد السائد بتقدّم الغرب على الشرق في مضمار الحضارة، حين لمستُ نوعاً من الأخلاق والعادات يخالفُ ما لمستُه في بلادنا، وشاهدت منظمات وصناعةً وانتاجاً لا عهد لبلادنا به، وهذا ما جعله يفكر في نتاج الحضارة الأوروبية».

وبعد هدوء المفكر، وارتياحه إلى صحة نتائجه أخذ القلم ليكتب فصولاً عن المدنية الحديثة، مظاهرها ومزاياها وعيوبها، وعن الاستيراد والديمقراطية، والثقافة، والحظّ أو السبب، والحياة الاجتماعية، والحياة الاقتصادية، والفرد والأسرة، والمرأة، والتقليد والابتكار، والقيم

الأخلاقية، ومادية الغرب، وروحانية الشرق، وموقف الشرق من الغرب، وهي مسائل تحدّث فيها الأستاذ من قبلُ في مقالاته الكثيرة، ولكنه شاء أن يجعل كتابه الأخير خلاصة لما انتهى إليه بعد أن شاهد بالعيان، ما وعاه بالقراءة والاطلاع.

وقد انتهى إلى جُملة صادقة سجّلها في خاتمة كتابه وهي أنّ العلم والصناعة ليسا سبب الشقاء في الحضارة الأوروبية، وأن الذي أهلك أوربة هو جشعها وتجردها من العواطف الإنسانية، لأنهم لم يستخدموا العلم والصناعة إلا لاستعمار الأمم المغلوبة، وسرقة الثروات، واغتصاب الحقوق!.

وإذا كان المؤلف قد انتهى إلى ذلك بعد أن بسطَ القول بسطاً أفضى إلى هذه النتيجة، فأيُّ كتاب صادق هذا الذي شرحَ مكمن الداء، وشخّصه أتمَّ التشخيص حين رآه في فقد الإنسانية لدى الغربي! وجشعه العدواني! وهذا هو الواقع.

وبعدُ فهناك كتب مدرسية لم نتعرّض لها، إذ شارك المؤلف نفراً من الفضلاء في تأليفها وهي كتب تربوية تجمع المعروف، وتقدم المألوف، وقد سبق ذكرها عليها في سجل مؤلفاته في أول هذا الفصل.

* * *

اثاره في النشر والتحقيق

١ ـ ديوان حافظ ومقدمته

لم يكنْ في خطة أحمد أمين أنْ يكونَ ناشراً محقّقاً، فقد جعل من همّه في عنفوان شبيبته العلمية أن يكونَ مؤرّخاً للحياة العقلية في الإسلام، ثمَّ حمله ظهورُ مجلّة (الرسالة) معبّرةً في أول أمرِها عن تيار (لجنة التأليف والترجمة والنشـر) أن يكون كاتبـاً دائماً يعالجُ شؤون الفكر والاجتماع والعاطفة.

ولكنّ أمراً اعترضَ حياته الأدبيّة، فوجّهها توجيهاً آخر لا يتعارض مع اتجاهاتها المتصلة في مضمار التأليف، هو أنّ وزير المعارف الأستاذ (زكي العرابي باشا) أرسل إليه راجياً أن يقومَ بنشر ديوان (حافظ إبراهيم) بعدَ جمعه من مئات الصحف والمجلات المختلفة، وهو أمرٌ يحتاج إلى عمل متّصل، لأنّ المسألة ليست مسألة مخطوطةٍ تُهيّأ للنشر، بل مسألة استقصاءٍ، وتتبّع في دوريات يمتدّ زمنها إلى قرابة نصف قرن! وهنا نهض الأستاذ بتحمّل هذا العبء، واختار زميليْه الأستاذيْن أحمد الزين وإبراهيم الإبياري شريكينْ في هذا الجهد، وقد انفردَ بكتابة مقدمةٍ بارعة عن حياة حافظ وأدبه، كانت المصدرَ الأوّل لكثير من الدراسات اللاّحقة، حيثُ كشفتِ الستار عن حقائق كانت كالمجهولة من الناحية التاريخية، ووضعَت الخطوط الرئيسة لكتابة بحث تحليليّ يحدّد مقام الشاعر بين شعراء جيله، والغريب أنَّ بعض من اتكئوا على مقدمة أحمد أمين، واستهلكوا أفكارها دونَ الإشارة إليه، تلمّسوا السبيل إلى نقْده نقداً متعسّفاً، دُون ضرورةٍ

علمية، فكان صنيعهم الشائن مذكراً بقول أبي الطيب المتنبي:

جوعانُ يأكلُ من زادي ويمسكني لكي يُقالَ عظيمُ القِدْرِ مقصودُ

وكان الأستاذ أحمد أمين منصفاً كل الإنصاف حين قال في مقدمة الديوان[1]:

«وكان من حظي أن شاركني في هذا العمل الأستاذان أحمد الزين وإبراهيم الإبياري، فقد لقيا من العناء في الضبط والشرح والتصحيح والترتيب، ما أتركُ تقديره للقارئ الكريم، وكان لهما من العمل وبذل الجهد في ذلك فوْق مالي، وإليهما يرجعُ أكثر الفضل في إخراج الديوان على هذا الوضع».

ثم قال بعد أن أشار إلى جمع القصائد وترتيبها وفق الموضوعات:

«وقد ضبطناهُ ضبطاً كاملاً لتسهيل قراءته على الناشئ، وشرحناه نوعين من الشرح، شرحاً يذكر ظروف القصيدة وملابساتها وتاريخ نشرها، حتى يتمكن القارئ من معرفة إشاراتها ووجوهها، إذْ في ذلك أكبر إعانة على فهمها وتقديرها، وشرحاً لغوياً لمفرداتها وأساليبها، وبيان المراد من عباراتها، وذكر الحوادث التاريخية التي أشار إليها في أبياتها، وقد نكونُ بالَغْنا بعض الشيء في كثرة الشّرح والضّبط، وعذرنا أننا راعينا نابتة الأدب، وناشئة الشّعر، أكثر مما راعينا الخاصة والمنتهين، وقدّرنا أنَّ الديوان ستتناوله أيدي الطلبة في المدارس الثانوية ومَن في مستواهم، فقصدناهم بالشرح، ونظرنا إليهم في البسط، وأرجو أن نكونَ قد وفقنا في تحقيق ما ندبنا إليه».

---

(١) ديوان حافظ: ١/ ٤٢.

٢ ـ العقد الفريد

كان تعاون الثلاثة الأفاضل أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري في نشر ديوان حافظ إبراهيم داعياً إلى تعاون آخر حميد في نشر كتابه (العقد الفريد) لابن عبد ربه نشراً علميّاً.

وكتابُ (العقد الفريد) ليس في حاجة إلى التنويه به، إذ لا تكاد تخلو منه مكتبةُ أديب باحث، وهو مرجع لكل ما تلاه من كُتب الموسوعات، مثل (نهاية الأرب) للنويري، و(صبح الأعشى) للقلقشندي، و(خزانة الأدب) للبغدادي، و(المستظرف) للأبشيهي، وغيرها، ولكنّ طبعاته القديمة قد مُنيت بالتحريف والحشو والنقص، وكان في حاجة ماسة إلى نشر دقيق، وأذكرُ أنَّ جَماعة من فضلاء أساتذة دار العلوم حاولوا نشره، فرأوا من مشقّات العمل ما دفعهم إلى اختيار نُبذٍ منه سموها (مختار العقد) وقالوا في مقدمة المختار ما ملخصه: إنهم ـ أصحاب المختار ـ رأوا فيه عيُوباً كادت تذهب بحسنه، وتمحُوا الأثر من استفادة الناس منه، وأهمها تحريف يكاد المعنى يضيعُ بسببه في كثير من مواضعه، حتى سمعنا من أديب كبير إنّ إصلاح العقد الفريد ليسَ في مكنة إنسان! هذا إلى الحشو والزيادة والنقص، لذلك كان إقدامُ الأستاذ أحمد أمين على نشر العقد وتحقيقه مصدَر ارتياح كبير لدى الباحثين.

وقد تحدّث الأستاذ عن جهده وجهد زميليْه في هذا العمل الحافل بعد أن أشار إلى فضل أستاذٍ هندي كبير هو الأستاذ (محمد شفيع)، حيثُ أخرجَ جزأيْن كبيْرين كانا مرجعيْن دقيقيْن في التحقيق والتصْويب، وعليهما اعتمد المحقّقُون في الترجيح والاختيار، وهذه الإشارة المنصفة لا بدّ منها في كلّ عمل مسبوق، ولكنا نرى من يَتعمد غمْط السابقين، وكأنّ الباحثين من ورائه لا يدرون شيئاً عما كان، وهي غفلة عقليةٌ وسقطة

نفسية، قال الأستاذ:

«ثم ها نحن أولاء نُحاول أن نخرجَ الكتاب إخراجاً علمياً، مصححين ما استطَعنا أَغْلاطه، مُعارضين نسخه المختلفة بعضها على بعض، مثبتين أصحها، ذاكرينَ في حواشي الكتاب، ما وَردَ في النسخ الأخرى، مكمّلين ما نقصَ من عباراته، مفسّرين ما أُبهم من كلماته، شارحين ما غمض من مشكلاته، ضابطين ألفاظه، متحرّين أصحّ الأقوال في نسبة المقطوعات الشعرية والنثرية والأخبار إلى أصحابها، مبيّنين اختلافَ الروايات في الشعر والنثر، منبّهين على أحسنها، معنْونينَ كلَّ خبرٍ وكلَّ مقطوعة بعنوان خاص يدلُّ عليه، ويجمع ما فيه من الإيجاز.

وكانَ أول ما فعلْنا أنْ كتبنا إلى الأستاذ (ريتر) المستشرق الألماني بالآستانة، نرجوه أن يتحرّى نسخَ العقد في مكاتب الآستانة، ليتبيَّن خيرها، وأصحّها وأحسنها، فكتب لنا وصفاً مطوّلاً، بالموجود من نسخ الكتاب، ومزاياها وعيوبها، وقد اخترنا خيرَها ـ بناءً على وصفه ـ ورجوْناه أن يصوّرها لنا بالفوتغراف، ففعل مشكوراً، وقد استعَنّا إلى جانب هذه النسخة بجميع نسخ العقد الموجودة في دار الكتب المصرية مخطوطةً ومطبوعةً.

وقد قوبل كتاب (العقد) باحتفاءٍ علمي مخلص من كِبار الباحثين، ومنهم الأستاذان الكبيران (محمد كرد علي) و(محمد إسعاف النشاشيبي) وقد كَتب الأستاذ النشاشيبي سلسلة مقالات بالرسالة تُنبّه إلى ملاحظات خاصة بالجزء الأول وقد بلغت من النفاسة والألمعيّة والاستشفاف ما لا مزيد بعدَه في التحقيق، وقد قال الأستاذ في مقدمة نقدِه[1]: «رأيتُ في

---

(١) الرسالة، العدد ٣٩٩، في ٢٤/ ٢/ ١٩٤١م.

هذه الطبعة الرائعة تحْقيقاً كثيراً، وفضلاً في الشروح والتعاليق كبيراً، وعثرتُ على أشياء في هذا الجزء في أربع مئة صفحة كنتُ أعاين ضِعْفها ـ والله ـ في صَفحةٍ واحدةٍ من تلك الطبعات القديمات الخبيثات، ولا ريبَ في أنَّ أكثر الخطأ في طبعة اللجنة إنما هو تطبيع.

وقد اعتادَ الأستاذ أحمد أمين أن يصدر كلَّ كتابٍ يقوم بنشره بكلمة جامعة عن مؤلفه، ومَنْ مِثلُه في كتابة هذه المقدمات الدقيقة، ولكنّه سَهَا سهواً بيناً حين قال في حديثه عن العقد بمجلة (الثقافة) ١٥/ ١٠/ ١٩٤٠: «إنّ أمالي أبي علي القالي كانت هي النواة الأولى التي بذَرها أبو علي القالي في بلاد الأندلس مِن علوم المشرق، وعليها تخرّج مشهورُو الأدباء في الأندلس ومنهم ابن عبد ربه».

وقد تعقّبه الأستاذ (محمد سعيد العريان) فقال في مقدمة الجزء الأول من كتاب (العقد) الذي قام بتحقيقه أيضاً على طريقته الموجزة[1].

«وظاهر كلام الأستاذ صريحٌ في أنَّ ابنَ عبد ربه كان لاحقاً لأبي علي القالي، وأنّه من تلاميذه، وأن كتابَ الأمالي أسبقُ من العقد الفريد، وأنّه أولُ ما نُقل إلى المغاربة من علم المشرق، وأرى هذا كله خطأً لا يستندُ إلى دليلٍ من التاريخ، فقد كان قُدومُ أبي علي القالي إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر، إذ توفّي ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨هـ، وكان مقدَمُ أبي علي في إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠هـ، وكانَ تأليفه كتابَ الأمالي بعد مقدمه بسنين، إذ كان هذا الكتاب هو مجموعُ محاضراته في جامع قرطبة».

ومن محاسن العقد أنّ الأستاذ أحمد أمين وزميليْه قد نشرُوا في

(١) العقد الفريد، طبعة الأستاذ العريان: ١/ ١٠.

الطبعات التالية، ما وُجّه إلى الكتاب من نقد هادف! وتلكَ سبيلٌ يجب أن تُسْلكَ وتحتذى!.

٣ـ الإمتاع والمؤانسة

يقدّر الأستاذ أحمد أمين أدب أبي حيان التوحيدي تقديراً كبيراً، وينزله منزلةَ الصدارةِ بين أدباء عصره، فهو أعظمُ من ابن العميد والصاحب والخوارزمي في رأيه، وذلكَ حق، لأنّه مبتكر مجدّد، وذو فكر ثاقب غوّاص وهؤلاء إلى الصّنعة أقرب منهم إلى الطبع، لذلك عمل الأستاذ على نشر مؤلفات أبي حيّان، وبذل جهداً كبيراً في تهيئة الجيّد من آثاره للنشر، وقد صادَف ذلك قبولَ الصفوة من المثقفين، فاندفعوا إلى قراءة آثاره، وكُتِبتْ عنه الرسائل الجامعية، والمؤلفات الخاصّة بتحليل أدبه.

وقد كانَ أبو حيان قليل الحظِّ من رضا ابن العميد والصاحب في زمنهما الغابر، فلو رَجعَ الثلاثة إلى هذا العصر لشاهدُوا حكم التاريخ الصحيح، حين يسمو أبو حيان بأدبه وعلمه على سادته الرؤساء.

وكتاب (الإمتاع والمؤانسة) أوّل كتابٍ حازَ عناية الأستاذ أحمد أمين من كتب أبي حيان، فقد قرأ النسخة المخطوطة الوحيدة الباقية، وضنَّ عليها بالإهمال، فسارعَ إلى تحقيقها مع صديقه الأستاذ أحمد الزين، وفُوجئَ القرّاء بنمطٍ رائع من التأليف لا نظيرَ له فيما عُرِفَ من الآثار، فتطلّعُوا إلى آثارِ أبي حيان جميعها، بل رجعُوا إلى ما طُبع من قبل، ولم ينل الاشتهار مثل كتاب (المقابسات) الذي حقّقه الأستاذ الكبير (حسن السندوبي)، وبذلَ في تحقيقه من الجهد ما لا يقوم به غير محقق ممتاز.

وتاريخُ أبي حيان التوحيدي قد أوْجزه الأستاذ أحمد أمين في سطورٍ تُغني عن مقال طويل، ونعمةُ الإيجاز لا يُلقَّاها إلا الفاقهون، حيث قال عنه في مقدمة (الإمتاع)[1]:

«أبـو حيان التوحيدي من أولئك العلماء الأدبـاء الذين أُصِيبوا في حياتهم بالبؤس والشقاء، وظلّ حياته يجاهِدُ ويكافح في التأليف، واحتراف الوراقة والنّسْخ وَجَوْب الأقطار، يقصد الأمراء والوزراء، لعلّهم يكافئون علمه وأدبه، فلمْ يحظَ من كلِّ ذلك بطائل، وعاش كما يقول في بَعضِ كتبه على نحوِ أربعين درهماً في الشهر، أيّ ما يُساوي جنيهاً واحداً، مع أنّه رأى كلّ مَن حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير، والحظ الوافر، وليسَ أكثرُهم يُدانيه علماً، أو يُقاربُه أدباً، قَصَد ابن العميد وابنَ عبّـاد وابنَ شـاهويْه وابنِ سعدان وأبا الوفاء المهندس، وغيرهم، ومَدحَ وأطرى، وبكَى واشتكى، وهدّدَ وأوعد، فما نفعَهُ مَدحُه ولا ذمّه، ولا إطراؤه ولا هجاؤه، فإن استفاد أحد مما عاناه أبو حيان، فإنّما هو الأدب بما كتب وألّف، وبما هجا واستعطف، ولم يكن حَظّه بعد وفاته، بأحسنَ منه في حياته».

ثم تحدّثَ الأستاذ ـ بعد تحقيق عَويص في أمورٍ شتى ـ عن الكتاب، فذكَر أنَّ مؤلّفه قسّمه إلى ليال، فكانَ يُدوّن في كلِّ ليلةٍ ما دار بينه وبين الوزير على طريقة السؤال والجواب، وكانَ الوزير ابن سعدان هو السائل، وأبو حيان هو المجيب، فكانتْ موضوعات الليالي مُتنوعةً تنويعاً طريفاً، وهي لا تخضعُ لتبويبٍ ولا ترتيب، إنّما تخضعُ لخطرات العقل، وطيرانِ

---

(١) المقدمة: ١/ج.

الخيال، وشجُون الحديث، حتى لتجدَ في الكتاب مسائلَ من كلِّ علم وفن، فيه الأدب والفلسفة والمجون والأخلاق، والبلاغة والتفسير والحديث، معَ تحليل دقيق لشخصيات العصر من الفلاسفة والأدباء والعلماء، وتصوير للعادات وأحاديث المجالس.

أما النسخة الوحيدة التي رجعَ إليها المحققان الأحمدان (أمين والزين) فهي مملوءة بالأخطاء، كثيرة الألغاز والأحاجي حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعي الجهدَ الشديد في تصحيحها، وقد بذلا جهداً هائلاً في تصحيح المحرّف وتفسير الغريب، وشَرح المشكل من العبارات، وتكميل الناقص من الجمل، وضبط الملتبس من الكلمات، والتعريف بكثير ممّن ورَد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة.

يقول الأستاذ أحمد أمين[1] «ومع هذا فربّما نكونُ قد أخطأنا الصواب. أو أغفَلْنا بعضَ المحرّف، وقد أثبَتْنا ألفاظه المحرّفة في حواشي صفحاته، ويُلاحَظ أننا في أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرّف وحده غير منبّهين على أنّه محرف، اتّكالاً على فهم القارئ، وفي بعض الأحوال ننبّه على أنّه تحريفٌ، وأنَّ صوابه ما أثبتناه»، وفي نفسي شيءٌ من إثبات اللّفظ المحرّف وحده دون تنبيهٍ على خطئه اعتماداً على فهم القارئ! وهذا ما دعَا كثيراً من الفضلاء إلى مراجعة الكتاب، وتدوين تعليقات علمية مفيدة على نصوصِه المشتبه في أمرها، وقد تلقّى الأستاذان المحققان هذه المراجعَة بفرح علمي أمين، وأثبَتَا ما ورَد إليهما في الطبعات المتتالية.

---

(١) مقدمة الإمتاع: ١/ج.

٤ ـ شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي

هذا الشرح نفيسٌ نفيس وكان من المنتظَر أن يرى النور منذ زمن بعيد، لأنّه في رأيي أعظم شُروحِ الحماسة جميعاً، وقد تحدّث عنه الأستاذ أحمد أمين فقال في مقدمة الكتاب[١]:

«قرأتُ أولَ عهدي بالأدب (شرحَ ديوان الحماسة) للتبريزي، فلم يعجبني، لأنَّ التبريزي نحوي لغوي أكثر منه أديباً وناقداً، فكنتُ أقرأ الشرحَ أحياناً، وأنا متعطّش جدًّا، لأفهم معنى بيت فلا أجده، لأنّ الشارحَ قد انصرف إلى شيء آخر، ثم عثرتُ على نُتَف للمرزوقي فوجدتُها تسدّ هذا النقص، وقرأت شرحَه على مشكلات أبي تمام، فرأيتُه إماماً عظيماً، لا يتهرّب من المشاكل، ولكن يتصدّى لها، فودِدْتُ أنْ لوْ عُثِرَ على شرحه لديوان الحماسة ونُشر، لأنّه يكمل نقص التبريزي، فلما عُثر عليه وَجدته فوق ما أتوقع، ووجدتُ له مقدمةً في النقد لم أرَ مثلها في اللغة العربية، فكم كنّا نقرأ في كتب الأقدمين عن عمود الشعر، فنحْفظ الكلمة ولا نفهم معناها حتى شرحَها المرزوقي شرحاً دقيقاً وافياً، وكم له من حسنات أخرى غير هذه، فإخراجه للقراء يسدّ ثلمةً، ويكمل نقصاً».

ثم قال الأستاذ في خاتمة المقدمة[٢]:

«وقد اشتركتُ في إخراجه مع الأستاذ المحقق عبد السلام هارون، والحقُّ يقال: إنه كان له حظ في نشره أكثرَ من حظي، فله الشكر على ما بذل من جهد في إخراج الكتاب، وفي نسبته ما ورد في الشرح إلى قائله،

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

والتعريف بأعلام الشعراء وغيرهم، وتصحيح ما حصل من خطأ الناسخ، ووضع فهارسه الفنّية، فالله يجزيه عنا وعن الأدب خير الجزاء».

وأقرن هذا القول بقول الأستاذ عبد السلام هارون في خاتمة التقديم الذي بـدأَ به الشرح: «وبعد فإنَّ صاحبَ الفضل الأكبـر في إخراج هذه النشرة الأولى من هذا الكتاب الجليل هو أستاذنا الكبير أحمد أمين بك، فهو الذي اقترحَ نشر هذا الكتاب لما له ولمؤلفه من الخطر، كما أقرَّ إخراجه في (لجنة التأليف والترجمة والنشر)، التي كانت لمصر وللعالم العربي بمثابة جامعة علمية عاملة بما أظهرت للمثقفين من آثار التأليف في الشرق والغرب، وقد اشترك حفظه الله في وضع منهج الإخراج ليبدؤوا الكتاب في هذا الوضع العلمي الحديث، كما تفضَّل بمراجعة ما صنعتُ لتحقيق هذا الكتاب مراجعةً دقيقة، فله من الله ومن العلم خير الجزاء».

وفي قول الأستاذ عبد السلام هارون ما يوحي بأنّ أحمد أمين كان مراجعاً لما صنع فحسب! مع أنّه قرر فيما قبل أنَّه اشترك في إخراجه، أمّا منهجُ الطبع فأنا آخذ عليه أنّه جاء بنصوص الحماسة مُندمجةً في الشرح العام، وكنتُ أُفضّل أن يكون الديوان في الأعلى مُرتبطاً متماسكاً، وأن يكون الشرحُ في الأسفل كما فعل الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد في شرح التبريزي، لأنَّ ذلك يسهّل قراءة المتن الشعري على نحو لا يعوقُه الشرح المكتنف للأبيات.

٥ ـ الهوامل والشوامل

إعجابُ الأستاذ أحمد أمين بأبي حيان لا يحدُّ، فقد حرص على نشـر ما يتيسّر نشره من مؤلفاته، ومنها كتاب (الهوامل والشـوامل) وقد

صادف ارتياح المثقفين ظهورُ هذا الكتاب بتحقيق دقيق، شارك فيه الأستاذ السيد أحمد صقر، وهو ذُو قدمٍ راسخة في التحقيق، وإخالُه قد قام بالعبء الأكبر في نشره، لأنّ ظروف الأستاذ أحمد أمين الصحيّة قد صَدته عن كثير مما يأمل، على أنّه وجَّه وراجع، وحقّق، ونشر، وهذا فضل كبير يُحسب له.

والكتاب باق على دوام الدهور، لأنّه يُعالِجُ مشاكلَ نفسيّة تتعرّضُ للإنسان منذُ آدم إلى قيام الساعة. فهو يبحث شجوناً من مسائل علم الأخلاق والاجتماع بحثاً فلسفياً، حيث قامَ أبو حيان بتوجيه أسئلةٍ فلسفية سمّاها الهوامل ليجيبَ عنها الفيلسوف (ابن مسكويه) إجابة دقيقة بما سماه الشوامل، وقد اختلف الفاهمون في تفسير الهوامل والشوامل اختلافاً مقارباً، ولكلٍّ وجهتَه.

وفي الكتاب ما يكشف النفس الإنسانية كشفاً صريحاً، إذ يتعرّض السائل والمجيب معاً إلى ظُلمات دامسة تقع في المجهول من طبقات النفس، ليقفَ القارئ على غوامضها، وفيها ما يشي بضعف الإنسان وانحداره وسقوطه، ممّا يجعل المرءَ في الحياة، وكأنّه ريشةٌ في مهبِّ الريح.

وكلّ قارئ يحب أن يعرف مناحي الضعف لدى الناس، لأنه يجدها في نفسه، ويحاذرَ أن يكشف اللثامَ عنها، فإذا وَجد مَنْ يشارِكُه هذا الضعف، ومن يُحاول أن يكشفَ أسبابه، ثم مبرراته ارتاحَ إلى أنّه ليس بواحدٍ فيما يفعله على وجه الاضطرار.

وقد كانَ الأستاذ أحمد أمين أميناً على العلم حين طلبَ من المحقق الفاضل الأستاذ عبد السلام هارون أن يَنْقدَ الكتاب، مبيّناً ما وقع فيه المحققان من أخطاء لا سبيل إلى تلافيها، وقد قام الأستاذ عبد السلام

هارون بنقد مصوِّب في مقالين متواليين، نشرهما بمجلة (الثقافة) التي يقوم الأستاذ أحمد أمين على تحريرها، وقد قال في مقدمة المقال الأول[1]:

«ولستُ أذيعُ سرّاً حين أذكُرُ للقارئ أنّ الذي أشار عليّ بكتابة هذا النقد لكتاب (الهوامل والشوامل) هو الأستاذ أحمد أمين، فقد سألني عن رأيي في إخراج الكتاب، فأثنيتُ على الجهد والعناية التي ظفر بها هذا الكتاب، وذكرتُ أنّ هناك بعضَ هنات يفوتُ أمثالها كلُّ ناشر، فطلب إليَّ أن أطلعه على بعضها ففعلت، فعزم عليّ في سرور العالم المخلص للعلم أن أنشرَها، إيماناً منه بعظم فائدة النقد، وشدة حاجة الناشر والقارئ له».

٦ ـ البصائر والذخائر

آخرُ كتاب لأبي حيان اشترك الأستاذ أحمد أمين في نشره وتحقيقه، وهو كتاب من طراز (الإمتاع والمؤانسة) في حلاوة سرده، وتنقّله من فن إلى فن، مع الغوص على المعاني النادرة في آفاق الأدب والعلم والفلسفة، وقد كتب الأستاذ أحمد أمين للكتاب مقدمةً بديعة كعهده دائماً، جَلا فيها بعضَ سمات المؤلف العلمية والخلقية، وأذكرُ أنه قال بصدد الموازنة بيْن أبي حيان والجاحظ: إنّ الجاحظ لما حَسُن حظه ضحك، فأتى بالفكاهة الحلوة، والنادرة اللطيفة، وأبو حيان لما ساءَ حَظّه بكى، والناس عادة يضحكون مع الضاحك، ويهربون من الباكي، فقد أكثرَ أبو حيان من الشكوى حتى ملّ منه ابن مسكويه في كتاب (الهوامل والشوامل) وقرّعَهُ عليه.

وهذا قول قد يبدو صحيحاً بالنسبة لما أثر عن أبي حيان من الشكوى،

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٤٥، في ٧/ ٥/ ١٩٥١.

وبخاصةٍ تلك الصرخة المدوّية التي أطلقها في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مناشداً الوزيرَ أن يُغيثه مما هو فيه من شديد البلاء، وعظيم النقمة، ولكنّ قارئ كتب أبي حيان في مستوياتها المختلفة يرى الفكاهة التي تنسب إلى الجاحظ ذات نظائر فيما سجّل أبو حيان في مؤلفاته المنشورة لدينا، وقد أكّد ذلك الدكتور زكريا إبراهيم حين قال تعليقاً على قول الأستاذ أحمد أمين في مقدمة (البصائر والذخائر)(١):

«ولكنَّ الواقع أنَّ أبا حيان ـ على الرغم من بؤسه، وكثرة شكاته ـ كانَ ميّالاً إلى الهزل والدعابة، فضلاً عن أنّه كان أعرفَ الناس بقيمة الفكاهة في حياة البشر، وهو نفسُه يقول في أحد المواضع: إيّاك أن تعافَ سماعَ هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنّك لو أضربتَ عنها جملة لنقص فهمك، وتبلّد طبعك، واجْعل الاسترسالَ فيها سلّماً إلى جدّك، فإنّك متى لم تُذِق نفسك فرحَ الهزل كَرَبَها غمُّ الجد، وقد طُبعت في أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة، فلا تحمل في شيء من الأشياء عليها فتكون في ذلك مسيئاً لها».

وأخيراً أقول: إنّ أحمد أمين لم يؤلّف كتاباً خاصاً بأبي حيان، ولكنْ لو جُمع ما كتب عنه في مقدّمات (الإمتاع والمؤانسة)، و(الهوامل والشوامل) و(البصائر والذخائر) وما حكاهُ عن أستاذه أبي سليمان المنطقي وعلاقته به في (فيض الخاطر) لاجتمعَ من ذلك كتاب مفيد.

٧ ـ خريدة القصر وفريدة العصر

اشترك الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف والدكتور إحسان

---

(١) أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء، للدكتور زكريا إبراهيم، ص٢٤٨.

عباس في إخراج القسم المصري من هذا الكتاب، حيث قامَ بعض الفضلاء بإخراج أقسامٍ أخرى، ومؤلّف (الخريدة) هو العماد الأصفهاني، ومكانتُه شاعراً ومؤرخاً وسياسياً في العصر الأيوبي ذائعة جهيرةٌ، وقد قام المحققون بجهد ضخم تحدّث عنه الدكتور شوقي ضيف في المقدمة فقال:

«اتفق أني اطلعت على النسخة المصوّرة من (الخريدة) بدار الكتب المصرية، ورأيتها صالحةً لأن تكون أصلاً ينشَرُ منه القسم المصري، غير أنّي سرعان ما عرفتُ أنّها تنقص كثيراً من أوّلها، وأيضاً فإنَّ أوراقها ضُمّ بعضها إلى بعض في غير نسَق ولا نظام... ثم ظفرتْ بعثة الجامعة العربيّة إلى تركية بقطعةٍ من القسم المصري للخريدة فرأيتُها لا تلتحم معَ مصوّرة دار الكتب المصرية، إذ بينهُما ثَغْرةٌ سقطت فيها تراجم الأمير أبي المهنّد، وهبة الله بن كامل، وابن الدوري، ثم فاتحة ترجمة القاضي الجليس، وقد نقلتُ الترجمة الأولى من (مختصر الخريدة) ـ لعلي رضائي ـ أما الثانية فقد وَجدت كتاب (الروضتيْن) لأبي شامة المقدسي يحتفظُ بها نقلاً عن الخريدة، والثالثة نقَلْتُها عن (المغرب) لابن سعيد، أما ترجمة القاضي الجليس فقد رجعتُ فيها إلى الثلاثة جميعاً! وبذلكَ التأم هذا القسمُ الذي ننشره من الخريدة، ولم ننتظرْ حتى نجد نسخةً كاملةً منه، لأنا يائسون من ذلك الآن».

وكان هذا العمل المفيد حقاً موضعَ اعتراض من الباحثة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطئ، فقد تعرّضت لنقده في مجلّة الكتاب (مارس سنة ١٩٥٢م) وقالت فيما قالت[١]:

«ولا بأسَ في أن نجمعَ تراجمَ شعراء مصر من مظانّها، وأن نَرجعَ

---

(١) مجلة الكتاب، مارس ١٩٥٢م، ص٣٤٢.

في ذلك إلى عشرات الكتب، ولكن البأس كلَّ البأسِ في أنْ نضع اسم العماد الأصفهاني على كتابٍ جمعنا مادته من كتب شتى، وأن نخرجَ للناس هذا الكتاب باسم (خريدة القصر، وفريدة العصر) تأليف العماد الأصفهاني الكاتب، مع أننا نصرّح لهمْ في مقدمته بأننا لم ننتظر حتى نجدَ نسخةً كاملةً منه، لأننا يائسون من ذلك الآن».

وقد ردّ على ذلك الدكتور شوقي في عددٍ تالٍ فقال[1]:

«ورمُّ الثغرة في كتابٍ على هذا النحو أصلٌ يتفقُ عليه الناشرون من عرب ومستشرقين، ومن الواضح أنّ (مختصر الخريدة) وهو (عود الشباب) منقولٌ عنها لا عن كتاب آخر، وكان من الممكن أن نسدّ الثغرة منه وحده، ولكنّه مقتضب جداً، فأخذنا منه ترجمة واحدة من التراجم الثلاث المذكورة، لم نجدها في كتاب غيره، وأخذنا الترجمة الثانية من كتاب (المغرب) لابن سعيد، قسم القاهرة الذي لم ينشرُ بعدُ، لأنّ أكثر تراجم هذا القسم نُقلت نقلاً عن (الخريدة).

أما الترجمة الثالثة وهي ترجمة (هبة الله بن عبد الله بن كامل) فقد جاءتْ في المختصر موجزةً جدّاً، وجاءتْ في (المغرب) مقتضبةً أبداً. ووجدناها في كتاب (الروضتين) أتمَّ وأكمل. . ومعَ ذلك فلم تأخذها إلا بَعْد درسٍ للكتاب، وبعد اطلاعنا فيه على تراجم أخرى رواها عن الخريدة، وبمعارضتنا لها على النص الذي نشرناه، وجدناها لا تختلف عنه إلا اختلافاتٍ يسيرة جدّاً».

وواضحٌ أنَّ الجهدَ الذي أشارَ إليه الدكتور شوقي جهدٌ مشكورٌ،

---

(١) مجلة الكتاب، مايو ١٩٥٢م، ص٦١٦.

ويكلّفُ من العناء في المراجعة والترجيح والضبط ما يجب أن يكونَ موضع التقدير! وبهذا الجهد أصبح القسم المصري بين أيدي القراء في ربوع العالم العربي بدل أن تقبع المخطوطةُ في مكـانٍ مجهولٍ.. وإذا تيسرت نسـخةٌ كاملةٌ فيما بعد فستأخذُ حظَّها من النشر الدقيق.

٨ ـ حي بن يقظان

وآخرُ ما قام به الأستاذ أحمد أمين في مجال النشر هو تحقيق كتاب (حي بن يقظان) لابن سينا وابن طفيل والسّهروردي، ويظهر أنَّ الأستاذ (أحمد أمين) كانَ يستعين بغيره في قراءة المخطوط وتصحيحه بعد الطبع، لمرض عينه، كما أشار إلى نظائر مشابهة لذلك في كتاب (حياتي)، لأنّ النسخة التي نشَرتْها دار المعارف بتحقيق الأستاذ حَفلَتْ بأخطاء كثيرة، لاتقعُ من مثله علماً وفضلاً وأستاذيّة، وقد قام الأستاذ الفاضل سعد محمد حسـن بتصحيح أخطاء كثيـرة زادت عن الأربعيـن في نقدٍ نشـرَهُ بمجلـة (الأزهر) عدد رمضان سنة ١٣٧٢هـ الموافق مايو سنة ١٩٥٣، وقد قدّم الأستاذ سعد نقده بقوله[١]:

«والأستاذ الناشر مع الأسف الشديد لم يحدّثْنا عن أيِّ أصولٍ تلك التي نشر عَنها قصتي ابن سينا وابن طفيل كما تَقضي بذلك أساليب النشر العلمية، وقد آسَفنا بحق أن تخرجَ هذه النشرة مليئةً بالأخطاء والسقطات، التي تتسع أحياناً إلى ما يقربُ من صفحةٍ كاملةٍ، مما يستحيلُ معه المعْنى وينغلِقُ، ويسيء إساءةً بالغة إلى الفيلسوفين الكبيرَيْن ابن سينا وابن طفيل.

---

(١) مجلة الأزهر، رمضان ١٣٧٢هـ، ص١١٢٨.

ومضى الكاتب في سرد ما لاحظه من الأخطاء، فاستغرقَ ذلك سبعَ صفحات من مجلة (الأزهر)، حَوت اثنين وأربعين نقداً، كلُّها في رأيي صائب.

والأستاذ سعد من كتّاب مجلة (الثقافة)، وقد تحدّث عن أحمد أمين على صفحاتها بما ينبئ عن فضله الكبير، وكان عليه حينئذ أن يخفّف من قسْوته التعبيرية في آخر المقال، لأنّه أدرى بظروف علاَّمة أقعده المرض عن البحث، ولكن روحه العلمية تتوثّب بين أضلعه ملتمسةً بذل الجهد العلمي قدرَ المستطاع، ولا أدري لماذا لم يختر المحقق الفاضل تلميذاً مساعداً من كبار تلاميذه، وقد أصبحوا أساتذةً كباراً في حياته، ليقومَ عنه بما قد يندّ عن مقدرته! كما فعل في تحقيقات كثيرة، ولكن هذا ما كان!.

ومن الجدير بالذكر أنّ قصة (حي بن يقظان) لابن طفيل، قد طبعت بعد ذلك طبعات منقحة متقنةً لأكثر من باحث مفضال، فأصبح النصُّ محرّراً صحيحاً يمتّع القارئ ويُغذّيه!.

(وبعد) فهذا ما أمكنَ أن نقوله عن (أحمد أمين) في ظل منهج مرسوم قامت به دار القلم ورأينا التزامه.

د. محمد رجب البيومي

الفهـــرس

الموضوع الصفحة

* * *